الجِدار الشفّاف

اسم الرواية: **الجِدار الشّفّاف .**

اسم المؤلف: **إيهاب بديوي.**

تدقيق لغوي: **شيماء عز الدين.**

تصميم الغلاف: **محمد دربالة.**

إخراج داخلي: **ساندي شريف إبراهيم.**

رقم الإيداع : 2021/2294

الترقيم الدولي :978-977-844-107-5

جميع الحقوق محفوظة للناشر

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.

وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

Email: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

إيهاب بديوي

الجِدار الشّفّاف

إبهار
للنشر والتوزيع

الّذي يفصِل بيْننا وبينَهم جِدار شفّاف.

يرَوْننا ولا نراهُم إلاّ حين يُريدون، لكنّنا نَشعُر بهِم دائمًا،

وتظلُّ الأساطير قائمَة، حتىّ يزولَ الجِدار.

صراع العوالم الخفية

(القرين)

لا يمكن؟ غير معقول؟ إنه هو

أخذ يُردِّد في تعجُّبٍ شديد وهو يحملق في وجه شابٍّ مَرَّ من أمامه ثم عبر الطريق، أفاق من ذهوله فأسرع يحاول اللحاق به ويناديه:

آدم، آدم.

لكنه ذاب في وسط الزحام.

عاد إلى منزله يضرب أخماسًا في أسداس، سألته زوجته عن حاله، حكى لها عمَّا رأى، ربتت عليه تستعيده من حزنه، لم يتجاوز قط وفاة صديق عمره في حادث وهو معه في العمل، يشعر بالمسئولية الكاملة عما حدث، لو كان يجلس مكانه لسقطت عليه تلك الكتلة الحجرية الضخمة، ساوت آدم بالأرض كأنه علبة كارتون، عانى انهيارًا عصبيًّا استمر فترة طويلة خرج منه مهزومًا، انقسمت روحه إلى نصفين، نظر إلى زوجته نظرًا طويلًا ثم ارتمى في حضن أمه التي تُراقِب الموقف بقلب مفطور على وحيدها حسام ونصفه الثاني آدم الذي تربى معه كشقيقه الذي لم تستطع أن تنجبه له بسبب وفاة والده مبكرًا ووهب عمرها له.

دخل حسام إلى غرفته حائرًا غارقًا في عالمه الضبابي، تكوَّم على فراشه حتى تجمعت أطرافه القرفصاء، حانت منه نظرة إلى المرآة المقابلة، إنه هو من جديد، فرك عينيه وركز فيما يرى، قام مسرعًا ووقف أمامها، لم تستجب المرآة لعكس صورته، متوقفة عند صورة آدم، وضع يده على المرآة يتحسس وجهه، ما أن وضع يده حتى بدأت ملامح صديقه تتلاشى وينضغط جسده حتى انفجرت كل أجزائه وعاد إلى الصورة التي رآه عليها

بعد الحادثة، صرخ من الرعب وقذف المرآة بزجاجة عطر صغيرة فتهشمت ألف قطعة، شاهَدَ آدم يبكي في كل قطعة منها.

دخلت زوجته ووالدته على صراخه وصوت تحطم المرآة، كان يبكي ويصرخ: سامحني، سامحني.

أسرعتا بمساعدته على الوقوف والابتعاد عن الزجاج المهشم، خرجوا إلى الصالة من جديد، احتضنته أمه وهي تدعو له وترقيه، بينما لم تتوقف زوجته عن البكاء، هدأ في حضن أمه وذهب في نوم كالغياب عن الوعي.

ركب الحجر الضخم الذي قتل صاحبه، طار به إلى ارتفاعات شاهقة، ثم هبط به من خلال فوهة بركان عظيم فهوى في طبقات نارية سنوات طويلة، رأى كل أشكال النار، البيضاء والحمراء والسوداء، حتى وصل إلى منطقة منصهرة شفافة فألقاه الحجر على شاطئ النهر المتجمد، لم يكن يتنفس من رئتيه، فتح عينيه فلم يرَ، كانتا مغمضتين جبريًّا بفعل تغير التكوين، لكنه رأى بيقينه وأحس بقلبه وسمع بروحه، انفجر النهر المتجمد عن حمم بركانية جديدة، ثم رأى عظامًا ذائبة وضمائر سوداء ونيات شريرة، عاد إلى الخلف مرتعبًا، التفت على صوت يعرفه، إنه آدم من جديد، كانت الكلمات صاعقة عليه:

ستعود، وسأعود، سألاقيك في ذاتك، سأطارد أفكارك، سأعذبك حتى تتمنى أن تسحقك الصخرة، وسأحبك حتى تتمنى أن تلقاني.

ثم ألقاه في نهر الحمم الجارف.

قام من نومه فزعًا وهو يصرخ باسم صديقه، كانت أمه وزوجته بجواره، فور استيقاظه طلبت زوجته أن يذهب معها إلى طبيب نفسي، بينما طلبت أمه أن يذهب معها إلى شيخ المنطقة، رأى آدم في أمه وزوجته يضحك له ويسخر منه، هاجمهما، ارتعبتا، ثم احتضنهما، وافقت الزوجة على طلب الأم على مضضٍ بشرط أن يذهب معها إلى طبيب نفسي أولًا فوافقت.

كان لا حول له ولا قوة، سأله الطبيب عن حاله فلم يجب، بدأ في سرد تاريخه سريعًا حتى وصل إلى صديقه، بدأ الضغط على مريضه، فجأة شاهد وجه صديقه في ملامح الطبيب، بكى، ضحك، هدَّأه الطبيب بإبرة غرزها في ذراعه، لم يُبدِ أي رد فعل وكأنه فَقَدَ الإحساس.

شخَّص طبيبه الحالة على أنها انهيار عصبي حاد بسبب صدمة وفاة صديقه أمامه ويحتاج إلى الراحة والمتابعة فترة طويلة، أوصى بدخوله المستشفى تحت الملاحظة.

لم توافق الأم ومعها الزوجة كيلا يُتَّهمَ بالجنون.

في المنزل كان الشيخ على موعد معهم، ألقى عليه الرُّقية حتى يتحرك، لم يُبدِ حراكًا، طلب الشيخ من الأم أن يسمحا له بأخذه لمدة ساعتين يوميًّا للصلاة ثم حضور جلسات يقوم بها في منزله للحالات المشابهة حتى يمكن السيطرة عليهم، وافقتا، لم يحدث أي جديد، بل زادت الحالة تعقيدًا وخطورة، عادتا إلى الطبيب النفسي، أوصاهما بصديق له يعمل طبيبًا أيضًا ولكن يستخدم طرقًا مختلفة، لم تفهما. لكن وافقتا فورًا تشبُّثًا بأي أمل، ضمه الطبيب الجديد لمجموعة خاصة يُعالِجُها، كانت المجموعة مكونة

من خمسة رجال مختلفي الأعمار والثقافات والأعمال، حكى كل منهم تجربته باختصار في أول جلسة مشتركة، يرون وجوهًا فقدوها في كل مكان، الأول حاتم، فقد زوجته ليلى في حادث سيارة وهي تجلس إلى جواره، يراها في أحلامه ويقظته غاضبة دائمًا، تتهمه أنه تسبَّب في موتها، الثاني الشاب هادي، فَقَدَ شقيقه وائل عندما كانا يلهوان أمام المنزل، دفعه برفق على سبيل المزاح فسقط على قطعة حديدية اخترقت قلبه، الثالث شومان، شاب ضخم الجثة، فقد حبيبته صفاء وهو يحاول تقبيلها، حاولت التمنُّع عليه فسقطا، لوزنه الثقيل دقَّ عنقها أسفله وماتت بين يديه، الرابع صادق، فقد ابنه الصغير ماجد وهو يعاقبه على تأخره الدراسي ويضربه على وجهه بعنف، لم ينتبه إلى خوف ابنه الشديد وضعفه الذي أدى إلى إصابته بهبوط حادٍّ في الدورة الدموية ووفاته بين يديه، وهو، جميعهم يرون من توفوا في كل وقت وكل مكان بصور مختلفة، أنهوا حديثهم وقد انهارت قواهم جميعًا، بدأ الدكتور شاهين الحديث وهو يُهدِّئ من روعهم، أخبرهم أنهم يتعرضون لهجمات من القرين، أصابهم الذهول ولم يفهموا، شرح لهم أولًا أن القرين هو جِنٌّ يُولَد مع الإنسان ويلازمه طوال حياته ومن المفترض أن يموت معه في حالة وفاته الطبيعية، وهو أحد قوى الشَّرِّ التي تنصح الإنسان بكل ما هو مخالف للأديان والأخلاق، وهو كافر بكل دين، يرتكز في منطقة الرأس ويؤثِّر في التركيز والتفكير والذاكرة.

أصابهم ذهول أكثر! تساءلوا عن دخل هذا الشيء بما يحدث لهم؟، أخبرهم أن جميع مَن يعرفون ماتوا بصورة غير طبيعية ولهم يد في موتِهم بطريقة أو بأخرى، وقد تحرَّر القرين فجأة بموتهم ولم يمت معهم لأسباب

لا نعلمها، ولأنه لم يتدرب على الحياة بمفرده، ألقى عليهم مسئوليةَ ما حدث.

مع استمرار ذهولهم الذي تحوَّل إلى رُعبٍ كامل سألوه عن مدى ما يمكن أن يصل إليه ذلك الكائن في عداوته وغضبه.

أخبرهم أنه يريد أن يتعذبوا كما يتعذب، وسيسعى إلى قتلهم بصورة مماثلة أو أكثر بشاعة مما حدث لمن ماتوا، ولكن بعد أن يعذبهم فكريًّا وجسديًّا ونفسيًّا.

نظروا إلى بعضهم البعض بعيون غائرة ورُعبٍ هائل.

كانت زوجة حسام ووالدته في انتظاره بعد انتهاء الجلسة، خرج معهما وهو يحاول استيعاب ما حدث، إنها حرب إذن، رآها في وجوه كل مَنْ مرَّ بهم، سمع همسًا في عقله: سأسحقك حتى لا يستطيعوا تجميع قطعك، سأفرمك حتى تتلاشى.

انهار مِنْ جديد، لم يستطع مغادرة المنزل، كان يخشى كل شيء حتى لمسات ابنه الصغير، تدهورت صحته، رغم تردُّد الدكتور شاهين عليه فإنه لم يستطع أن يُحدِثَ تقدُّمًا في حالته. بعد شهر طلب الطبيب منه أن يرافقه في اليوم التالي لحسم المسألة نهائيًّا، لم يستجب له في البداية إلا أنه أخبره أنه قد جهَّز حلًّا لينهي المسألة للأبد، طلب من زوجته أن تجهز له حقيبة ملابس صغيرة لأنهم سيغيبون مدة أسبوع، لم تعارضه كثيرًا فجميعهم يتمنى الخلاص من هذه الكارثة.

أخذه الدكتور شاهين مع أصدقائه الذين يعانون مثله إلى منزل ريفي منعزل على ممر مائي صغير تحيطه أشجار كثيفة اختاره بعناية فائقة ليناسب الطقوس التي سيُجريها خلال هذا الأسبوع، وصلوا فوجدوا في انتظارهم شخصين آخرين أحدهما قوي البنية كأنه مصارع، يبدو عليهم جميعًا الوهن الشديد والخوف الذي أصبح جزءً من ملامحهم، نزلوا متثاقلين. حملوا حقائبهم يتأملون المكان القديم بعيون ميتة ، دخلوا إلى القاعة الصغيرة، التقوا سيدة متوسطة العمر حادة الملامح قدمها الدكتور شاهين.. فاتن المسئولة عن الطعام، وكل منهم مسئول عن نظافته الشخصية ونظافة المكان.

صعدوا بحقائبهم إلى الدور الثاني، كان التخطيط أن يحضروا جميعًا في مكان واحد، وُضِعَت أسِرَّتُهم في غرفة واحدة فسيحة، تهاوى كل منهم على أقرب سرير له وقد أعيتهم الرحلة التي استمرت عدة ساعات، لم يجرؤ أي منهم على السؤال أو الاعتراض، حتى المبالغ التي طلبها الطبيب من أسرهم لتجهيز هذا الأسبوع العلاجي كما أخبرهم لم يعترضوا عليها، لم تكن لديهم القدرة على الاعتراض.

ذهبوا جميعًا في سُباتٍ متوتر، ثم قاموا في فترات متزامنة يصرخون من الرعب، لقد هُوجِمَت أحلامُهم من جديد، هدَّأ الطبيب من روعهم وهو سعيد لأنه تأكد أن القرناء قد حضروا، أحاطهم ومعه مساعدوه وهدَّؤوا من روعهم وهيَّؤوهم نفسيًّا، بعد تناول طعام محدد بدقة يُنَبِّه العقل ولا يثقل المعدة، جلسوا في حلقة في القاعة الكبيرة في الدور الأول، أخبرهم أن كل ليلة سيقوم بعمل جلسة لتحضير روح صاحب القرين الذي يُطارِدهم ليقنع

قرينه بالانتحار أو الذهاب إلى عالمه والانشغال بشيء آخر، أذهلتهم طريقة العلاج، لكن لم يستطع أحد الاعتراض، عند منتصف الليل أعطى المعد الأول إشارة اكتمال التجهيزات للطبيب، تجمعوا في قبو المنزل، شموع في كل مكان، منضدة بيضاوية في وسطها رموز وأشكال غريبة، جلس كل في مقعده المختار بعناية فائقة، كان الاختيار الأول للشاب الذي تسبَّب في موت حبيبته، توسط الجلسة والرعب يتملكه، فوجئوا بمُعدَّة الطعام هي من ستقوم بدور الوسيط ليكتمل عددهم تسعة كشرط من شروط التحضير أن يكون العدد ٣ أو مضاعفاته، و٩ شمعات، اكتملت الطقوس بوضع بعض فُتات الخبز وقطع تفاح على وشك الفساد وقليل من الماء العطن في وسط المنضدة.

طلب الطبيب من الجميع أن يمسكوا بأيدي بعضهم وألا يتركوها أبدًا مهما يحدث إلا عندما يطلب هو ذلك، أخذ نفسًا عميقًا ثم بدأ في الحديث بصوت جهوري حادٍّ:

أيتها الروح الهائمة في الملكوت، يا روح الشابة المغدورة صفاء، احضري في هدوء وعليك السلام، أيها الحرس الأشداء، يا حراس الأبواب الخفية بين العوالم العلوية والسفلية، اسمحوا بمرور روحها المعذبة في سلام، أيها السكان والعمّار، كُفُّوا أيديكم عنها ودعوها تمُرُّ في سلام، أيها الناظرون والمترقبون والهامسون، أغلقوا أعينكم وسدُّوا آذانكم عنَ الأسرار، الليل ليل والنهار نهار، والعذاب لمن يخالف أوامر الجبار، أيتها الروح الهائمة المعذبة الحائرة، أقبِلي في سلام، أقبِلي في سلام. أقبِلي في سلام.

ما أن أنهى عبارته حتى لاحظوا ريحًا خفيفة لا مصدر لها بعد غلق كل النوافذ. ثم تراقص أضواء الشموع. فأتبع:

لو كنتِ روح صفاء انقري على الماء بصوت مسموع.

تعجَّب الجميع، كيف يسمعون صوت النقر على الماء، لكن تعجبهم تحوَّل إلى ذهول حين رأوا موجة خفيفة في كوب الماء ومعها صوت طرقة خفيفة كأنها حجر يلامس الخشب.

أتبع الطبيب:

سنسألك وعليك الإجابة، طرقة واحدة تعني نعم وطرقتان تعني لا، هل تعرفين أحدًا من الموجودين هنا؟

سمعوا طرقة واحدة.

أتبع:

أنتِ مرتاحة؟

سمعوا طرقتين.

– هل انتقلتِ إلى العالم الآخر؟

سمعوا طرقتين.

– أما زلتِ في عالمنا؟

سمعوا طرقة واحدة.

– هل تألمتِ حين الموت؟

لم يسمعوا طرقات، تعجبوا جميعًا، لكن الدكتور شاهين أوجس خيفة بشدة، بعد لحظات ارتفع لهيب جميع الشمعات ثم ارتفعت المنضدة قليلًا عن الأرض فصرخ الطبيب: اهدئي يا صفاء وإلا طلبتُ من الحراس ضربك بسياط النور.

هدأ الأمر قليلًا فأخذ الجميع نفسًا عميقًا.

– سألها الطبيب:

هل مَن آذاك هنا؟

سمعوا طرقة.

– هل تعمد إيذاءك؟

سمعوا طرقة.

– صرخ شومان:

– لا! لقد كان حادثًا؟

فوجئ الجميع بفاتن تنقلب عينيها وترتعد بقوة ثم تتحدث بصوت جهوري مرعب وهي تشير إليه:

كاذب، كاذب.

انهار الفتى في البكاء وهو يصرخ:

سامحيني، لم أكن أقصد.

– أتبعَت:

كنت تريد اغتصابي لتكسر عيني وتجبر أهلي على زواجنا ولم تخبرني، قاتل، قاتل.

أصاب الرعب الكامل الجميع، ثم فوجئوا بالمقعد الذي يجلس عليه شومان يرتفع في الهواء رغم ضخامة جسده وهو يصرخ ويبكي، ثم يُلقى بعنف وقوة في الحائط القريب، صرخ الدكتور شاهين لإنقاذه، كان البقية مثبتون في مقاعدهم لا يستطيعون الحراك، كما كانت أيديهم مثبتة معًا كأنها ملتصقة. أو مدكوكة، كان المشهد عصيبًا ومرعبًا، فوضى عارمة، أنفاس لاهثة، عيون جاحظة، وخدوش وكدمات ملأت جسد ذلك الشاب الذي سقط مغشيًّا عليه، انهاروا جميعًا في البكاء. وقاموا أرجلهم تكاد لا تحملهم، طلب الدكتور شاهين من معاونيه أن يوصلوهم إلى غرفتهم، بينما استمر هو وفاتن مع شومان حتى أيقظوه، فتح عينيه مرعوبًا باكيًا، جسده كله يرتعد وهو يردد:

- يا ويلي، سامحيني يا صفاء، لقد أذنبتُ في حقِّك، ولكن لأني كنت أحبك وأريد أن أكسر عناد والدك، سامحيني يا حبيبتي.

أعطاه الدكتور شاهين إبرة مهدئة، ثم نقله مع مساعده الذي عاد إلى بقية زملائه. حاولوا الهروب من مخاوفهم بالسقوط في هوة النوم.

مرت الليلة بلا أحداث تالية، لم يقطعها سوى أنفاس لاهثة وشخير مرتفع متقطع بينهم.

في الصباح كان الإنهاك واضحًا عليهم جميعًا، لم يستطع أحد أن يتحدث، تناولوا فطورًا خفيفًا ثم أخذهم الدكتور شاهين للنزهة لتغيير الأجواء، مَرَّ

بهم في الحقول المجاورة حتى استقروا تحت شجرة توت في منتصف الأرض الزراعية، جلسوا فيها قليلًا، أحضر لهم أحد الفلاحين طعام الغذاء بناءً على تجهيز واتفاق مُسبق مع الدكتور شاهين، ظهرت عليهم جميعًا علامات الهدوء والراحة، فجأة، بدأ شومان في الصراخ:

الرحمة، الرحمة.

التفتوا إليه، كان يُحملق في قطة سوداء متوقِّفة أمامه مباشرة وتزوم في غضب، أسرع الدكتور بإبعادها بهدوء بعد أن طلب منها الأمان، ثم هدَّأ من روع شومان وطلب منه أن يكون أكثر قوة لأنه مَرَّ بأكثر المراحل خطورة والقادم أهون.

عادوا إلى المنزل وطلب منهم أن يستريحوا ويستجمعوا طاقاتهم.

تجمعوا عند منتصف الليل عند الطاولة البيضاوية، اكتملت المظاهر والتجهيزات نفسها، كان الدور على حسام، تلا الدكتور المقدمة نفسها حتى سمعوا النقرة على الماء.

بعد النقرة الأولى بدأت الطاولة في الاهتزاز، ظهرت علامات القلق على الدكتور شاهين ونظر إلى فاتن التي تصببت عَرَقًا، سأل مباشرة:

أنت روح المدعو والمطلوب؟

سمعوا نقرة عنيفة.

– أنت غاضبة؟

سمعوا نقرة أعنف.

– يا آدم اهدأ، موتك كان قضاءً وقدرًا.

سمعوا نقرتين عنيفتين جدًّا، ثم ابيضت عينا فاتن وظهر على ملامحها الغضب الشديد وأشارت إلى حسام قائلة بصوت رجولي جهوري:

– هذا الخائن قتلني.

صرخ حسام وقد تملَّكه الرعب الكامل:

ليتني كنت مكانك، هل نسيت أنني كنت أريد الجلوس على مقعدك؟

– رفعت فاتن بقُدرةٍ مُذهلةٍ الطاولة والمقاعد معًا ثم تركتها وهي تصرخ: كاذب، كاذب، لقد كنت تتمنى موتي لأني أنجح منك وأفضل منك، لا تكذب على ذاتك.

غاب حسام عن الوعي بعد أن توالت صرخات الجميع حين شاهدوا صخرة عظيمة تحوم فوق رؤوسهم، ثم انفكَّ عقد أيديهم وساد الهدوء والظلام معًا، صعدوا إلى غرفتهم وقد فقدوا الأمل في الحياة بعد أن حقنهم الطبيب بالمُهدِّئ، بينما كان حسام يعاني تشنُّجاتٍ عصبيةً متكررة استلزمت جلسة تنفس صناعي أعدها الطبيب للطوارئ، صعد إلى الغرفة لا يكاد يرى.

في الصباح كان الثلاثة الذين لم يعقدوا جلساتهم قد حزموا حقائبهم وهم في حالة انهيار تام، لم يحرك الدكتور ساكنًا فتعجبوا، ثم جلسوا متهالكين على المقاعد القريبة ودخلوا في نوبة بكاء، بينما كان شومان وحسام في حالة فِقدان للزمان والمكان، طلب صادق أن تكون الليلة ليلته، أخبره الدكتور

شاهين أنه سيكون في الليلة الأخيرة، ثم قام يدور حولهم وطلب منهم الخروج لتغيير الجو بعد أن امتنعوا جميعًا عن الطعام.

جلسوا على ممشى صغير موازٍ للمجرى المائي ثم ألقى حجرًا حرَّك الماء الراكد:

- اسمعوني جيدًا، ما سأقوله الآن لم يكن من الممكن أن تستوعبوه أو حتى تصدقوه قبل أن تخوضوا التجربة، وليس من المفترض أن أقوله لكم أساسًا، ولكن من حقكم أن تعرفوا، نحن بطقوسنا تلك
- نفتح بابًا بين العوالم الخفية، ولكل عالم طقوسه وحراسه وقوانينه، كل من على الجانب الآخر يستطيع أن يسمعنا ويرانا، منهم الحُرُّ ومنهم المُقيَّد، ومنهم مَنْ يهتم بنا وأكثرهم لا يفعل، الروح بعد الموت تتخلص من أثقال عالمنا وضعفه وقدراتها المحدودة المُمثَّلة في الجسد المعوق والحاكم لطبيعة تكوين الروح وتنتقل إلى عالم آخر أكثر رحابة يحتوي عالمنا. ولكن قوانين عالمنا وعالمها الجديد تمنعها من الرجوع بأية صورة، تعجبوا جميعًا، فأتبع:
- لا تتعجبوا، مَن نستدعيهم ونتعامل معهم هم قرناء الموتى الذين يعلمون عنكم كل شيء لتعاون قرنائكم معهم، كل ما تفكرون به، أحلامكم، مزاجكم، مشاعركم، كل شيء لا تعلمونه حتى عن أنفسكم، أعداؤكم الذين في داخلكم مستعدون لفضحكم طوال الوقت، يقل دور هذا القرين وتقوى عزيمتكم عليه كلما تطهرتم واتبعتم تعاليم الديانات السماوية، الله واحد وهو الخالق العالم بكل

شئون خلقه، الصراع بين ثلاثي النفس والروح والقرين خالد، الروح بطبيعة خلقها تسعى إلى السمو والرفعة وإرضاء الخالق، والقرين شيطان كافر يسعى بصاحبه إلى الدرك الأسفل من النار، وبينهما تتأرجح النفس وتتراوح، فمنها الخبيث، ومنها الطاهر، وأغلبها بين هذا وذاك، قرناء أصدقائكم غاضبون ويحملونكم مسؤولية موت أصحابهم، ومن الواضح أن عندهم كل الحق، حتى لو كان تمنى الموت نية لا ترقى إلى الفعل فقد وجدت، وما وُجِدَ في عالم الملكوت لا تغفره إلا التوبة الخالصة، ولكنه سيظل موجودًا في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، والنيات التي تعلمها الشياطين أولى بالخالق العظيم أن يعرفها، لا بد أن نكمل جلساتنا لأن المواجهة تُضعف القرين وتسيطر عليه، وكلما كنا أكثر قوة معًا استطعنا هزيمته وطرده من عالمنا.

رغم صدمتهم من هذه الاعترافات، إلا أنهم قرروا معًا التشبث بالفرصة وتحدي تلك الشياطين، فكرة الأرواح كانت أكثر رعبًا لهم لأنها بصورة أو بأخرى تمثل أحبابهم الحقيقيين، الشيطان هو الشيطان ويجب محاربته في كل الأحوال.

اكتملت الطقوس والتجهيزات خلال الليلتين التاليتين، اتهم القرناء حاتم وهادي بتعمُّد القتل، حدثت ردود الأفعال نفسها، تحمّلوا وازدادوا ترابُطًا، بشّرهم الدكتور في الليلة الأخيرة أن الخلاص قد اقترب، ولكنها ستكون أصعب ليلة، تعجبوا، فالمتبقي هو الطفل الصغير ماجد، حذرهم الدكتور

من الاستهانة به. فالعلاقة عكسية بين الغضب والقوة والعمر، لم يأبهوا كثيرًا لحديثه فقد اشتاقوا إلى العودة إلى حياتهم الطبيعية.

بدأت الجلسة بالإجراءات العادية، اكتملت الطقوس، بدا التوتر واضحًا على وجه الطبيب ومساعدوه، حضر القرين بإشارة أولية عنيفة جدًّا، حتى انفلقت الطاولة إلى نصفين دون أن تنفصل، ازدادوا ترابُطًا وشدوا على أيدي بعضهم بعضًا، كان السؤال الحاسم عن نية القتل، أنكر صادق بعَنجهية معتادة، فوجئ الجميع بالمساعد العملاق يرفع صادق في الهواء كأنه ورقة لا وزن لها بعد أن ابيضت عيناه، دون أن يفتح فمه صرخ فيه بصوت مُزلزل:

– كاذب حقير، كنت تتمنى موتي طوال الوقت.

ثم ألقاه بمنتهى العنف والغضب في نهاية الغرفة فاصطدم بالجدار، أسرعوا نحو المساعد للسيطرة عليه وإنقاذ الرجل، تكاثروا عليه، ألقاهم كعلب العصير الفارغة في كل اتجاه، واجهه الدكتور شاهين مباشرة وهو يأمره بالانصراف، دفعه بعنف، ضربه شومان على رأسه بعصا غليظة ففقدَ الوعي، أسرعوا إلى صادق لإنقاذه.

فوجئوا بكل شيء في الغرفة يطير في الهواء ويُلقى عليهم. ثم هدأت الأمور فجأة، ظنوا أنه قد رحل، سمعوا تأوُّهًا مكتومًا، نظروا نحو مصدر الصوت، كان صادق ينتفخ وقد جحظت عيناه وخرج لسانه من فمه، حتى انفجر وتناثرت أحشاؤه في كل مكان، عجزت أقدامهم عن حملهم، سمعوا صوتًا مُزلزِلًا مجمَّعا يخرج من فمه رغم موته الواضح:

– اللعنة عليكم، لقد امتدَّ الغضب ليشمل كل من يحيط بكم، ستعيشون عبيدًا لخوفكم، سنلاحقكم في كل مكان، حتى في أحلامكم.

ثم وجدوا الصوت يخرج من فم فاتن وقد نزعت ملابسها ووقفت عارية على ما تبقى من الطاولة:

– العار عليكم، العار لكم.

أسرعوا بالخروج ركضا في كل اتجاه. وفاتن وجسد صادق المهترئ يطاردهم، ألقى المساعد نفسه في المجرى المائي. اشتعلت النيران في جسد شومان، قطع الطبيب رقبة فاتن بسيف أعده لذلك، أطلق حاتم النار من سلاح أحضره احتياطًا على هادي حين كان يهاجمه ثم انتحر، توجه السيف بقوة مضادة إلى قلب الدكتور فمزقه. أطلق حسام ساقيه للريح.

أفاق بعد عدة أيام في المستشفى لا يذكر شيئًا، أخبروه أنهم وجدوه على قارعة الطريق والجروح تملأ جسده نتيجة حادث سير فيما يبدو، وجد الدكتور سوميا الطبيب النفسي على رأس معالجيه، تعجب لمعرفته أنه طبيب نفسي، ابتسم له وانتظره بعد تمام شفائه الذي حدث بسرعة مذهلة، استقبله في عيادته، وجد عنده فاتن والمساعدين، سقط وعيه وانهار منطقه، لقد شاهدهم يتم قتلهم، ابتسموا له وحيوه، هنَّأه الدكتور سوميا باختياره كمسئول جديد عن رحلات المنزل المهجور، شريطة ألا يخبر الضيوف بعد ذلك بالأسرار. حتى لا يلحق بالدكتور شاهين...

صرخات على الجدار الشفاف

التقيا على باب المنزل، عائدًا من عمله وعائدةً من السوق، أيقن أن الطعام غير جاهز، رَمَقَها بنظرة غاضبة فعاجلته بحجّة قوية، اضطر إلى الصمت ودخل يجُرُّ معدته خلف قدميه، لا نوم مع الجوع، ولا حياة مع مثل هذه الزوجة، هكذا حدَّث نفسه وهو يتابع مطربة حسناء تتدلَّل بجسد مصنوع بالكامل خارج البلاد. رغم أنها خرجت من منطقة شعبية قريبة منه، ابتسم وهو يحسد السبعة الذين تزوجتهم، أخيرًا أحضرت له زوجته طبق أرز ومعه فاصوليا بيضاء، نظر إليها طويلًا ثم سألها عن بقية الطعام، ابتسمت ساخرة من راتبه مقارنة مع تطلعاته، لعنها في سِرَّه وهو يلعن الظلم المستشري في البلد، بعد أن امتلأت معدته. غلبه النعاس، دخل إلى غرفته وانهار على فراشه رغم ضجيج الشارع وصراع الأبناء الذي لا ينتهي.

قام فَزِعًا بعد قليل على صوت صراخ مُتواصِل، جرى ناحية مصدر الصوت، كان قادما من الحمّام وابنته المراهقة مرتعبة من حشرة متوسطة ظهرت في أحد أركان الحمام الصغير، نظر لها بغضب شديد ثم ملأ دلو ماء ساخن وألقاه على الحشرة كي تتعلَّم كيف تتصرف عندما تكون وحدها، حَمَلَ قتيلَه وجرى خلف ابنته التي لم تتوقف عن الصراخ. وزوجته تطلب منه أن يتعقَّل قليلًا، هرب منه النوم، نزل إلى المقهى فالتقى بعد الأصحاب وقضى معهم ساعات حتى اقترب الليل من انتصافه، عاد مُرهقًا، دخل من فوره ليلحق بآخر ساعات النوم قبل يوم مرهق آخر، ما إن ذهب في النوم حتى رأى نفسه في وادٍ تحيطه الجبال من كل جانب، لم يجد منفذًا واحدًا أو وسيلة مساعدة يستطيع استغلالها للخروج من هذا المأزق، سمع صوتًا من خلفه فالتفت، ارتعدت ركبتاه وفتح فاه من هول المفاجأة، حشرة

عملاقة تنزل من قمة الوادي وعيونها الكثيرة مسلطة عليه. ثم رأى الأعجب، مجموعة من الحشرات كوَّنت حلقة حول قِمم الجبال كأنها جمهور جاء ليشاهد حدثًا عظيمًا، وصلت الحشرة إليه ثم وقَفَت على أرجلها الخلفية، حشرة عملاقة بتفاصيلها المقززة، أحاطته بقرون استشعارها الحادة، سمع دقة على جرس فضربه ذلك الوحش ضربة واحدة من قدمه المغطاة بشُعيرات مستدقة فألقاه بعيدًا على ظهره، أدرك أنه عرض ما، وأنها حلبة مصارعة من نوع جديد، دَقَّقَ في وجه الحشرة فاكتشف أنها التي قتلها في الصباح نفسه، كانت عندها علامة لونية مميزة، طلب منها الرحمة فضربته بقوة وعنف مرة أخرى، بكى، نظرت له الحشرة باحتقار، ثم صعدت إلى قمة الوادي مرة أخرى واختفت مع أقرانها، ظن أن العرض قد انتهى، لكنه فوجئ بهم يعودون جميعًا وفي يد كل منهم دلو عملاق تخرج منه أبخرة كثيفة، ثم ألقوا ما به عليه في توقيت واحد، انسلخ جلده وذابت عظامه من شدة حرارة المياه.

قام من نومه فَزِعًا يلهث بقوة، فزعت زوجته وأحضرت له ماءً تسأله عما حدث، في نفس الوقت صرخت ابنته، خرجوا سريعا لمعرفة ما يحدث، كانت الفتاة تتصبَّب عرقًا وتبكي بشدة وهي تنظر إلى أحد أركان الغرفة، نظروا حيث تنظر فلم يجدوا شيئًا، هدَّأ من روعها وسألها عمَّا رأت، قالت إنها شعرت بحركة فوق صدرها، فتحت عينها فإذا بها قطة سوداء تنظر لها بعين حمراء غاضبة شرسة ثم قفزت إلى ركن الغرفة، طمأنها والدها أنه مجرد كابوس رأى هو نفسه حلمًا قريبًا منه منذ قليل، نامت معها والدتها لتطمئنها بينما عاد هو إلى غرفته يتعجب من هذه المصادفة.

بعد قليل سمع صوت صراخهما معًا، اجتمعت الأسرة في غرفة الفتاة، ولدان أصغر منها والأمُّ يقفون في ذهول فوق الفراش، نظر حيث ينظرون، قط أسود يقف مُحدِّقًا إلى المقعد الصغير، من أين دخل والشقة مُحكمة الغلق؟ ماذا يفعل في غرفة الفتاة؟ أرعبهم أكثر أن بدأ يشتعل ذاتيًّا، حرفيًّا شاهدوا نارًا تخرج من عينيه وتحرق الستارة القريبة، بعد أن جمَّدتهم الصدمة لحظات أسرع يحضر ماءً لإطفاء النار قبل أن تمتد، نجح في أن يعيدهم من ذهولهم بصراخه فيهم ليساعدوه، سيطروا على الموقف أخيرًا، بحثوا عن القط فلم يجدوه، انهارت الفتاة وأمها في بكاء مرير، طلبت منه أن يتصرف ويبحث عن ذلك القط الغريب ويطرده خارج المنزل، خرج والرعب يتملكه، قَلَبَ الشقة رأسًا على عقبٍ، حتى فتح دولاب غرفة النوم، وقفَ مَذهولًا، شُلَّ تفكيره كما عجز عن الحركة والصراخ، عشرات القطط السوداء تقف متعامدة داخل الدولاب مُكوِّنةً شكلًا هرميًّا معقدًا وعيونها تقطر نارًا وشرًّا، تراجَعَ للخلف أخيرًا ثم أكمل خروجه عَدْوًا، وجد زوجته وأولاده في حالة رعب آخر بعد أن اشتعلت النار بدون سبب في ملابس الفتاة، اجتمعوا في صالة الشقة ولم يستطيعوا النوم إلا بعد أن طلعت الشمس، كان الجميع مُهتزًّا مرعوبًا لا يفهم ما الذي يحدث، لم يستطع أحد منهم مغادرة المنزل قبل الظهيرة، نزل مُتهالِكًا فذهب إلى المسجد القريب، أدى صلاته بذهن شارد ثم طلب من الشيخ أن يُحدِّثه منفردًا، حكى له ما حدث في الليل بالتفصيل، طلب منه الشيخ أن يهدأ وسيحضر له بعد صلاة العصر ومعه شيخ زميل متخصص أكثر في هذه الظواهر، نزل له مرة أخرى لصلاة العصر وقد أصاب الأسرة كلها الرعب

لقرب دخول الليل دون أن يفهموا شيئًا، حضر الشيوخ أخيرًا، بمجرد دخولهم بدا على الشيخ المتخصص التجهُّم الشديد وأخذ نفسًا عميقًا، طلب التوجُّه مباشرة ناحية الأماكن التي شاهدوا فيها القطط، كان يتمتم بصوت خفيض وهو يتنقل من غرفة لأخرى، طلب في النهاية مشاهدة الحمام ثم سألهم سؤالا مباشرًا:

– هل ألقيتُم ماءً ساخنًا في الحمام؟

نظر بعضُهم إلى بعضٍ بذهول ثم أجابه الأب بالإيجاب، هَزَّ الشيخ رأسه عدة مرات ثم طلب البقاء في غرفة الفتاة وحده قليلًا، سمعوا قراءته لآيات من القرآن مع تشغيل كل أجهزة المنزل على سورة البقرة وتكرارها باستمرار، دخل عليهم الليل، انقبضت قلوبهم جميعًا، طمأنهم أنه سيقضي معهم الليلة بينما ذهب الشيخ الآخر إلى مسجده، جلس معهم جميعًا حسب طلبه وبدأ يسأل الأب أسئلة محددة:

– هل تركتم المنزل أكثر من ٤٠ يومًا؟

أجابه الأب أنه ترك زوجته وأولاده مع أسرته في الريف لسفره ثلاثة أشهر في مهمة عمل عادوا منها الأسبوع السابق.

سأله إن كان في العمارة شقق مغلقة، أخبره أن هناك شقة مغلقة منذ سنوات بجوارهم لسفر أصحابها.

سأله إن كانوا قد لاحظوا بعد عودتهم انقطاعا مُتكررًا للكهرباء وفسادًا سريعًا للخضار والفاكهة؟ نظر بعضُهم إلى بعضٍ بتعجب وأخبرته الزوجة

أن الفاكهة بالذات كانت تشتريها طازجة وتتركها قليلًا بعد غسلها فتجدها وقد ظهرت عليها علامات الفساد وكأنها متروكة من عدة أيام.

سألهم إن كانوا قد سمعوا أصواتًا غريبة خاصة بالليل أو شعروا بحركة خاصة في الحمام أو المطبخ؟ أجابت الفتاة سريعًا أنها سمعت أكثر من مرة أصواتًا هامسة في الحمام وحركة خفيفة جدًّا في المطبخ.

هَزَّ الشيخ رأسه عدة مرات ثم طلب أن ينفرد بالفتاة، سألها إن كانت قد رأت في أحلامها كابوسًا أو سمعت همسًا باسمها، أخبرته متعجبة أنها بالفعل سمعت نداءً هامسًا باسمها عدة مرات خاصة في السنة الأخيرة ولكنها لم تُعِر الأمر اهتمامًا، كما أنها تعرضت لكوابيس حادة على فترات متقطعة من عمرها حتى كرهت النوم.

أخذ نفسًا عميقًا يحاول تجميع إرادته وقوته معًا، طلب منهم أن يهدؤوا تمامًا وينام معًا في غرفة واحدة، وسيقضي معهم الليلة، لكنه سيظلُّ في الصالة يقرأ القرآن ويُراقِبُ الموقف، حانت منه غفوة خفيفة استيقظ منها على صوت حركة، كانت ساعته تُشير إلى ما بعد منتصف الليل، تلاعب النور قليلًا، ثم لاحظ إطفاء ضوء الحمام، ترقَّب الموقف، سمع همسًا، ثم شاهد رأس قط أسود يطلُّ عليه من الحمام بعينين حمراوين، حاول الثبات، رأي عيونًا كثيرة تطلُّ من فوق رأس ذلك القط، خفق قلبه بشدة، في لحظة واحدة وجد القط بجواره، ارتفع صوته بالآيات القرآنية، نظر له القط بغضب، وقع في قلبه أن أهل البيت هم مَنْ بدؤوا في الإيذاء، صوت هامس بغير كلام، أجاب أنهم لم يقصدوا، جاءه الهمس في يقينه أن طفلًا قد أُصيب

بحروق شديدة ولا بد من الانتقام، وعليه أن يخرج قبل أن يُصيبه أذًى، سأل إن كانوا عُمَّارا، جاءه الرد بالإيجاب، سأل عن سبب انتقالهم للشقة هنا، أجابوه طعام وفير والشقة القديمة رائحة لا تُطاق، طلب منهم أن يعودوا إلى الشقة المغلقة في سلام، زام القطُّ غضبًا، ثم سمع صراخ الأسرة من الداخل، أسرع إليهم، ملابس الفتاة بدأت في الاشتعال الذاتي، وقع في يقينه أنها أضعف الحلقات ونقطة الاتصال، بكت الأم وطلبت أن يغادروا المنزل فورًا، حذَّرها الشيخ من أنهم مطاردون ولو خرجوا ستتع دائرة الخطر حولهم، نظر للقط في غضبٍ وحذَّره، اختفى القط وعادت الكهرباء التي انقطعت قليلًا، دخلوا جميعًا في نوبة بكاء مريرة، طمأنهم الشيخ أنه سيُشكِّل في اليوم التالي فريقًا قويًّا ليتخلصوا من هذه المصيبة، طلعت الشمس وظنوا أن الهجوم سيتوقَّف في النهار، خرج الشيخ ليرتاح قليلًا وُيحضِر المدد، بعد الظهر فوجئوا بعدد هائل من القطط في الصالة، وفي وسطها كائن غريب يشبه الضبع لكنه بلا ملامح، فقدوا النطق، حاصروهم في غرفة الفتاة، غابوا جميعًا عن الوعي، عاد الشيخ فوجدهم في حالة انهيار تام. بعد أن اضطر إلى كسر باب الشقة لأنهم لا يستجيبون، طلب منهم الهدوء التام لأن المرحلة التالية شديدة الصعوبة وسيتعرضون لهجوم حادٍّ مباشر، خاصة لو تُوفي ابن العُمار، أحضر معه شيخين وبدؤوا بالعمل فورًا، قرؤوا آيات معينة، حضرت لهم قبائل أخرى من الجن، طلبوا منهم التدخل لحماية العائلة من القبيلة الغاضبة، جاء الرد بعد شدٍّ وجذبٍ أنهم يريدون حياة الفتاة قربانًا، سألهم عن سر تمسكهم بالفتاة، أخبروهم أنها الأضعف مقاومة وأن جسمها الأثيري الحامي للجسد مُكوَّن من طبقات يمكن

اختراقها، ومن ثم هي الأكثر ملاءمة لهم، كما أنها مناسبة أيضًا من ناحية العُمر. وقد خضعت لمراقبة طويلة من العُمار عندما كانوا يقطنون في الشقة المغلقة، وانتهزوا فرصة خلو المنزل فترة طويلة لينتقلوا للإقامة هنا.

حاولَ الشيوخ حثَّ ضيوفهم على طرد العُمار بعد أن فشلت المفاوضات، انقطعت الكهرباء بعدما حلَّ الظلام، خرجت القطط من الحمام وفي وسطها الضبع الكبير والغضب يتطاير من عينيها، اختفى الضيوف، وجدَ المشايخ أنفسهم في مواجهة مباشرة، حُذِّروا من التدخل وشُلَّت حركتهم، دخلت المجموعة الغاضبة على الأسرة، عرف المشايخ أن الصغير قد مات، غاب الجميع عن الوعي.

في الصباح كانت الشقة مُحترقة بالكامل. استطاع الجيران إنقاذ الأسرة وقد حدثت تشوُّهات تُشبِه جروح المخالب في كل أجسادهم، ولم يعثروا للفتاة على أثر.

الطريق الدائري

ليس الممكن أن يسير بالسيارة أكثر من ذلك، نحلت الإطارات تمامًا وبدأ الجسم المعدني في الإحتكاك بالأسفلت وإطلاق شرارات نارية، توقف بالسيارة على جانب الطريق غاضبًا منها بعد أن خذلته ولم تساعده للوصول إلى المدينة القريبة، نزل ورائحة الاحتكاك تزكم الأنوف، كان الوقت قد تعدى منتصف الليل بقليل، رغم صفاء السماء في الصيف القائظ فإن الحركة على الطريق نادرة والسيارة التي تمر كأنها طائرة من سرعتها، لم تُفلح محاولاته في إيقاف أية سيارة، أغلق سيارته وبدأ في السير لاعنًا حظه، عدة كيلومترات تفصله عن المدينة على الطريق الدائري الجديد، لاح له سُلَّمٌ يؤدي إلى طريق مختصر يعرفه مسبقًا، نزل السلالم المتهالكة وهو على غضبه، لم يجد أحدًا أسفل الطريق، ازداد غضبه، في العادة يوجد سائق ينتظر زبونًا آخر الليل، أين هو هذه الليلة؟ سار على الطريق الصغير الموازي لمجرى مائي ضيق، منطقة فلل وقصور قديمة لم يعد أغلبها مسكونًا، قلّ غضبه وزاد توتره مع سماع حفيف الأشجار الكثيفة بفعل موجة ريحية مفاجئة، هدأت حركة قدمه مع إحكام الظلام قبضته عليه، مؤامرة كونية غير مفهومة.

سار بهدوء أكثر، سمع صوت كلاب قادمًا من بعيد، كاد ينهار، توقَّف تمامًا عن الحركة، نظر خلفه، لا معالم لأي شيء، ابتلع الظلام الأخضر واليابس، لا بد من المواصلة، سار يتحسس وقع قدميه وقد سيطرت عليه فكرة الخلاص من هذا الموقف الخانق.

فجأة، رأى عينين حمراوين مواجهتين له، توقف عن التنفس، ظهرت أنياب حادة ومعها صوت يزوم بغضب، في اللحظة التي انطلق فيها الكلب

العملاق نحوه كان هو يقفز عبر المجرى المائي الموازي لسور فيلا تبدو مهجورة، قفز الكلب خلفه فاضطر إلى تسلُّق السور المتوسط والقفز في الناحية الأخرى والنباح الغاضب يلاحقه حتى سمع وقع احتكاك مخالب الكلب على جدران السور، أخذ نفسه قليلًا وتفقَّد خسائره، بعض الجراح الناجمة عن تسلّق السور عبر الأفرع الخفيفة الكثيفة، كميات كبيرة من الأتربة التي تؤكِّد عزلة المكان، قام يتحرك بهدوء وترقُّب، تبين أنه في حديقة قصر ضخم، الحديقة ممتلئة بالتماثيل والمخلفات المهملة، سار يعرج بسبب كدمة مباشرة في ركبته جراء القفزة. كان أكثر ما يخشاه أن يفاجئه كلب آخر، لكن يبدو أن المكان لا تسكنه إلا الأرواح.

صدمته الفكرة وسيطرت عليه حتى تمكنت منه، توقَّف تمامًا عن الحركة، تمتم بما يحفظ من أدعية، لكن موجة خوف عاتية اجتاحته حين ربتت يد ثقيلة على كتفه، تصبَّب عرقًا وتجمَّدت أطرافه، التفت في بطء قاتِل، أذهله وجه الكلب يواجهه تمامًا وعينه تقطر غضبًا وشرًّا، الكلب واقف على قدميه الخلفيتين كالبشر، أدرك مَن يواجه. ابتلع ريقه وعاد خطوة للخلف، لاحظ حوافر الماعز بدلًا من أقدام الكلب يقف عليها ذلك الكائن الذي اقترب منه نفس الخطوة، رائحة أنفاسه لا يطيقها بشر، عاد مرة أخرى للخلف لكنه تعثر في شيء ما فوقع على ظهره، انقضَّ الكلب عليه وربض على صدره، ضحك وبدت له قرون يحاول أن يخفيها، ازداد رعبًا لكن ذهنه عمل سريعًا، مَدَّ يده إلى جيبه فأخرج مفاتيحه، في لحظة واحدة غرز مفتاح السيارة المُستدَق في كتف الكلب الذي أصابه الذهول وعاد خطوتين للخلف ثم أطلق عواءً كالذئب، وقف نصف الكلب كأنه مشلول، يدرك

أنه الآن قد سيطر على ذلك الكائن. وأصبحت حياته في يده، حاول التحرك للابتعاد فوجد عشرات العيون الحمراء تحيطه من كل جانب، عاد فاحتضن نصف الكلب من الخلف مهددًا بقتله، تطايَرَ الشَّررُ من العيون لكنها ابتعدت للخلف قليلًا، سار يدفع نصف الكلب أمامه وقد تمكن منه الرعب حتى بال في بنطاله، سار به وسط العيون المترقبة المتحفزة، خرج من باب القصر الذي تم فتحه وأسيره أمامه. وصل إلى الأسفلت وأصوات من كل جانب بدأت تزداد حوله، واضح أن الهدف السيطرة عليه بالخوف، ورغم خوفه فقد تشبَّث بنصف الكلب لأنه أمانه الوحيد، طلب منه أن يخبر أصدقاءه أن أي حركة غادرة ستساوي عمره، ألقاه على الأرض ثم امتطاه. رغم ثورة نصف الكلب وعواء كل من حوله واهتزاز الأشجار بعنف. فإنه لم يعصِ أمره.

ضربه على مؤخرته فبدأ في العدو وهو يزأر كالأسد وأطياف كالنار تتطاير حوله، اخترق الأرض الزراعية حتى وصل إلى أعتاب مدينته، ابتعدت الكلاب الأخرى بينما ازداد عواء نصف الكلب رعبًا، عند اقتراب الطريق الرئيسي كان الفجر على وشك البزوغ والحركة بدأت تدبُّ في الشوارع، ربطه في عمود وأخذ مفاتيحه، في لحظة لم يرَه، ذهبَ مُسرعًا إلى الطريق المأهول وما أن رأى بشرًا حتى سقط مغشيًّا عليه.

أفاق ليجد نفسه في مستشفى يحيطه الهدوء والسكينة، ضرب على زر فدخلت زوجته والممرضة سريعًا، تبعهما الطبيب الذي اطمأنَّ عليه وبشّره بزوال الخطر بعد ليلة عصيبة، سأل زوجته عمَّا حدث فأخبرته أنه نجا من حريق سيارته الذي جعلها كتلة خردة، لا أحد يعرف كيف وصل إلى أول

المدينة، تعجَّب مُحاوِلًا تذكُّر الأمر، خرجت الزوجة مسرعة لتخبر بقية الأسرة حسب طلب الطبيب أن تفعل ذلك بالخارج، لاحظ تحولات تحت معطف الطبيب، نزل بعينيه إلى أقدامه، كانت أقدام الطبي. كأقدام الماعز.

أتوني الصمت

ترقبَت في هدوء حركة النجوم، اقتربت من التمييز بين الدب القطبي والكلب اللاهث التابع للقائد المتوج على عرش الذئاب، ما يثيرها دومًا استسلام الليل للظلام، كيف يتنازل كل فترة عن النجمات المضيئات؟ والكارثة حين يسمح للقمر بالغياب! أي عذاب في انتظار الأمل الممتنع عن ممارسة دوره في حياتها منذ وعت على تفسير مختلف لتقرّب والدها منها ولمساته التي تغمر جسدها الصغير. في غياب روح أم حاضرة بجسدها المرهق من طول العمل في تجارة الرقيق الأبيض كما تحب أن تسمي الطيور البيضاء المتعبة التي تبيعها في السوق.

كانت تساعدها أحيانا في تربيتها فوق سطح المنزل الفقير وتذهب معها في أوقات الحرية القليلة لتشهد اللحظة التاريخية حين تمنح طيرًا حرية جديدة تمنتها كثيرا والسكين تسير ببطئ على رقبتها لتصبح بعد قليل جزءً من أجساد بشرية في أغلب الأحوال.

فزعت من تأملاتها الهاربة على صوت خافت يحاول إيقاظها، رغم اعتزالها الغرفة ولجوءها إلى بيت الطير بنصيحة من أمها كلما تمادى والدها في انتهاكه لها، إلا أن الليلة تبدو في نظراته الشبقة أشياء مختلفة، تبعها إلى بيتها الآمن، اعترضت الطيور الفزعة بأصوات متتالية، لم يأبه لها وهو يسحب الفتاة الصغيرة بشيء من الشدة إلى ساحة الظلام وهو يهمس لها أنه هو من صنعها وأن كل جزء فيها من حقه.

لم تكن تفهم ما يفعل من قبل، كانت تظنه جزءً من طقوس الأبوة في عالم مغلق عليها، لكنها بدأت تدخل عالمه العنكبوتي حينما تعمد كثيرًا أن

يمارس الجنس مع أمها بالقرب منها. أو حتى أمامها، يريدها أن تدخل عالمه الأسود بقدميها، يتفنن في إذلالها وقهرها.

ثم بدأت الصورة تتضح لها أكثر حين فهمت من صديقاتها في المدرسة في حوار عابر مفتوح بعد أن بلغت الثانية عشرة وخطبت إحداهن لشاب أكبر قليلًا.

لكن الصورة اكتملت حين تأكدت أن مشاعر الرفض الطبيعية داخلها والصراع الفطري الذي يسود لياليها هو في الحقيقة الشيء الصحيح، فلا يجوز للأقارب العبث في الأجساد الطاهرة أو ممارسة الأعمال التي ساهمت في تكوينهم، هكذا نبهتها زميلات مدرستها في ملاحظة عابرة.

يبدو أنه مُصر على التمادي الليلة ولن يكفيه مجرد العبث الداخلي، همست في أذنه حين حاول أن يخلعها ملابسها:

- حرام!

صدمته الكلمة؟ كيف تتجرأ وتذكره أن هناك ربا آخر لها؟ كيف تجرح مشاعر شيطان لازمه منذ أقنع نفسه أنها مجرد دمية يمتلكها من حقه اللهو بها كيفما شاء؟

ابتعد عنها قليلًا، ظنت أن الذئب الذي يسيل لعابه سيرتدع ويعود إلى جحره القديم، لكنه ما لبث أن خضع من جديد لإله الهوى فجذبها بقوة ناحيته ممزقًا ملابسها.

عندما يحرس الذئب النعاج تتوقف الخراف عن استعراض القوة، عندما يقف النسر على رأس الليث المحتضر، تبدأ العنادلة في عزف لحن

الاستسلام وتنعق الغربان معلنة شؤم الأيام التالية، شاهدت في السماء نجومًا تبكي، وعرشًا يهتز.

انتهى منها وهو يلهث خلف شهوته الهاربة، لملمت ما تبقى من كيانها المتداعي، دخلت إلى بيت الطيور وتكورت في ركن صغير، خانتها دموع ترفض الخضوع.

لم يظهر القمر في سمائها بعد تلك الليلة، استمر الذئب ينهش براءتها وأغلق أمامها كل الأضواء.

بعد شهور من المعاناة شعرت بألم مبرح في بطنها، ازداد يومًا بعد يوم وهو لا يرحمها، حتى فوجئت في إحدى الليالي بكائن غريب ينزل من بين قدميها، لم تعرف ولم تفهم وكان قد حرَّم عليها أن تسأل، جاءها باحثًا عن شهوته فهاله ما رأى، أمرها من فورها أن تتخلص من هذا الوحش الذي سيفتح عليه أبواب جهنم. بإلقائه في مقلب القمامة.

حملت مأساتها وقلبها ينفطر عليها، سارت في شوارع غريبة مقفرة، خيوط العنكبوت تغلق كل الأبواب، وضعته بغريزتها أمام باب منزل تعرف أصحابه. وطرقته. ثم ابتعدت، ظلت تراقب الموقف حتى اطمأنت إلى أن صغيرتها قد وصلت إلى ليل به قمر.

عادت إلى عالمها المظلم، طلب منها شيطانها أن تكون أكثر حرصًا بعد ذلك، ازداد جرأة عليها فلم تعد الساعة بين الطيور، الظلام يزداد وخط العودة الذي تتمناه لم يعد ممكنًا.

كانت تعرف أن والدتها وأشقاءها الصغار يعرفون ويسمعون دوي الصمت كلما التصق بها في حضرة نومهم المصطنع، وكانت أمها تردد دائمًا:

– الصبر دواء الجراح، ولابد للشمس أن تشرق.

وشمسها أصبحت السعادة التي كانت تراها في عين صغيرتها. بعد أن تركت دراستها. وعملت في خدمة الأسرة التي تبنتها دون أن يعرف أحد أنها تخدم ابنتها.. وشقيقتها!

خالب القلوب

تناهت إلى سمعه أصوات متداخلة من الشارع الجانبي، قاده فضوله وضوء الشمس إلى النظر في الشارع الصغير، اصطدمت به بمجرد دخوله مجموعة من الشباب. لم يحصِ عددهم بدقة، ربما ثلاثة أو أربعة، لكنه ميز جيدًا ملامح أحدهم وملابسه، دخل إلى أول الشارع فوجد شابًا وفتاة ينزفان بشدة ولا تبدو ملامحهما على مسافة غير بعيدة في ظل المنازل المحيطة، رفع حاجبًا وأنزل آخر وابتسم ساخرًا من حالهما:

- عاهرة صغيرة شاء حظها العثر أن يشاهدها مع عشيقها مجموعة من الشباب فدار بينهم صراع كانت هذه نتيجته، لا يستحقون الرحمة.

وقف مترددًا للحظات وقلبه ينبض زائدا قليلا، لم يتحرك من مكانه رغم نظرات الرجاء التي رآها في عين الفتى غير القادر على الحديث والحركة فيما يبدو، بعد قليل تجمع المارة وتعالت الصرخات ثم حضرت الإسعاف لكنها رفضت حمل الجثث قبل حضور الشرطة.

- جثث؟!

هكذا كان سؤاله بعد أن توارى وسط الجموع المتجمعة.

- نعم، لقد وجدهم المسعفون أمواتا.

بهذه الكلمات الصادمة أجابه أحد الوقوف.

حضرت الشرطة وحققت مع الموجودين سريعًا، ارتفع صوت أحد الضباط يسأل إن كان أحد قد رأى شيئًا، لم ينطق أحد.

أصاب لسانه الشلل كما أصاب قدميه منذ بدأت الأحداث، سمع همهمات مختلفة بين الحاضرين، أحدهم يقول أنهما كانا في وضع مخل فقتلهما شقيق الفتاة بعد أن ضبطهما، آخر يردد أنها حادثة سرقة تطورت إلى قتل، واستمرت التكهنات لكنها جميعًا أجمعت على سوء سلوك الفتاة الذي أدى بها إلى هذا المصير السيء.

عاد إلى منزله القريب متعجبًا من هذه المصادفة الغريبة، لم يحرك ساكنًا تجاه ما رآه وما يجب الآن يفعله، في رأيه لا يوجد مبرر للفتاة ولا تستحق أن يساعدها أحد.

سأل عن أولاده فعلم أنهم ما زالوا في الخارج، تناول طعامه وشدد على إيقاظه فور حضور ابنته.

توجست الأم خيفة من لهجة زوجها، فهذا معناه أن ابنتهما الجامعية سوف تنال قسطًا جديدًا من التعذيب المغلف بالخوف عليها، أسرعت تتصل بها على هاتفها، وجدته مغلقًا، نبض قلبها بشدة وحاولت تفادي الصدام الوشيك، اتصلت بابنها الكبير في عمله وسألته عن شقيقته، نفى علمه بمكانها، اتصلت بشقيقها الجامعي الآخر، لا يعرف شيئًا عنها، جن جنونها، اتصلت بكل من تعرف، لا خبر.

عادت إلى ابنيها وطلبت منهما البحث عن شقيقتهما قبل أن يعرف والدهما ويكيل لها أصناف العذاب، في المرة الأخيرة التي تأخرت فيها جعلها تبيت في الحمام المظلم وتركها يومًا كاملًا دون طعام رغم أنها أثبتت أن سبب تأخرها في الجامعة أحد المدرسين الذي أخر المحاضرة.

يحافظ على شرفه كما يقول، ماذا سيفعل هذه المرة؟

لم يصل لها أحد، جن جنون الأب، توعدها بالحرق والمنع من الخروج مرة أخرى حين تظهر، تواصل بحثهم ليوم آخر عن الفتاة في تكتم شديد كما طلب هو درءا للفضيحة المنتظرة، تذكر في خضم غضبه العارم الفتاة التي رآها في ظلال الشارع الصغير.

ارتجفت أطرافه وهو يذهب وحده إلى قسم الشرطة للسؤال عن هويتها، أدخله الحارس إلى الضابط المسئول عن القضية، سأله عن سبب سؤاله عن الفتاة، ارتبك قليلًا ثم اعترف بأنه شاهد عيان على الحادث ويستطيع أن يصف أحد الجناة، أخبره الضابط أنه لم يتم حتى الآن تحديد هوية الفتاة، وطلب منها مشاهدة صورها لعله يعرفها، حدثه عن تصوره للجريمة وهو يستعرض صورة وجه الفتاة:

- كانت تعبر الشارع فسقطت وسط صراع الشباب مع بعضهم دون أن يكون لها أدنى علاقة بهم، هكذا قالت إحدى السيدات التي شاهدت الحادث من نافذة منزلها.

خفق قلبه بشدة حين لم يتعرف على الفتاة المسكينة، الشريفة.

أدلى باعترافات تفصيلية حول ما رأى ووصف وجه الشاب بدقة.

خرج من قسم الشرطة مهزومًا تطرق رأسه الأفكار العاصفة، مستعدًا للصفح عن ابنته مهما كان سبب غيابها، عاد إلى المنزل على صوت صراخ وعويل، هاجمته زوجته بالدعاء عليه، سأل عما حدث، صعقته الإجابة:

- انتحرت الفتاة خوفًا منك لأنها تأخرت رغمًا عنها في الجامعة كما قالت لأصدقائها.

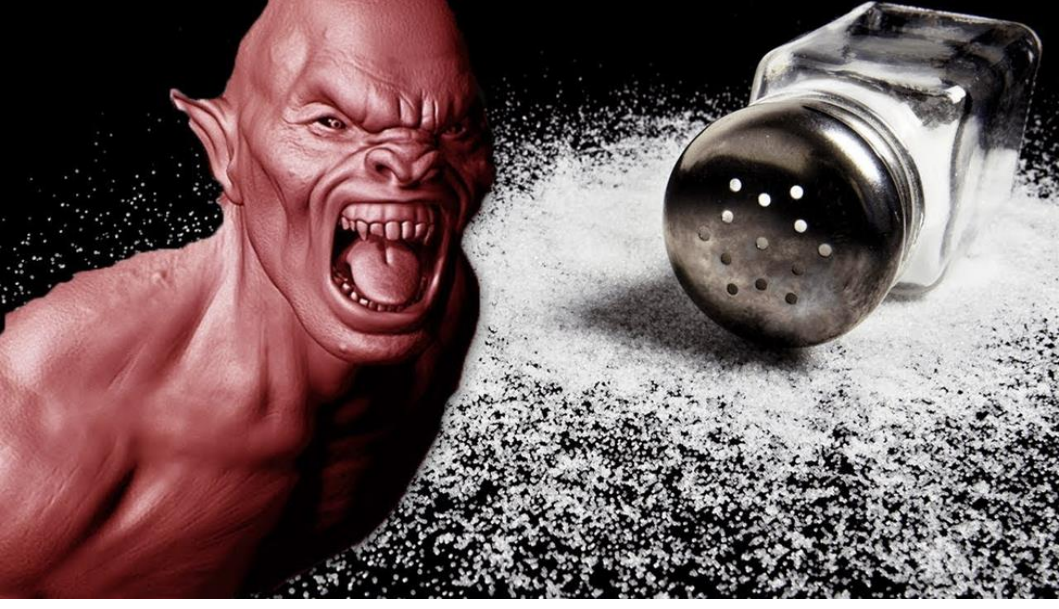

عدس وملح وشيطان؟

هرج ومرج وصراخ وعويل يجتاح السوق، الكل يجري ناحية ماكينة الطحين العتيقة التي تتوسط المدينة الصغيرة، شاب يمتلئ كفه بالدماء ضرب رأسه على الحائط المتهالك وهو يصرخ:

مات، قطعت رأسه، انتقمت الماكينة من غريب.

اخترق الحشود سلطان ابن غريب، فوجئ بالمشهد، والده شِبْه منفصل الرأس بجانب الماكينة اللعينة، أسرع بحمله والدماء تقطر منه والبلدة كلها خلفهما، اختار المسارات المختصرة في الشوارع الضَّيقة التي تفصله عن المنزل، بعد دقائق طويلة وصل إلى المنزل المُكوَّن من طابقين، اندفع غير آبهٍ بالصَّرخات والإغماءات التي اجتاحت أفراد الأسرة، وضعه على فِراشه أخيرًا ثم خرج وأغلق الباب خلفه.

انهار على المقعد الذي وضعه أمام الباب ليمنع أي أحد من الدخول.

توافَدَ جميعُ أفراد العائلة على وقع الخبر الكارثي، ومعهم حضر ضابط الشرطة الذي يعرفهم جيدًا ليفتح محضرًا ويغلقه في الوقت نفسه، في إجراء روتيني لتوضيح سبب الوفاة بعد تقرير طبيب الصحة الذي أثبت طبيعة الوفاة، عند العصر كانت البلدة كلها تسير خلف الجثمان نحو المدافن التي تحتلُّ جنوب الطريق الرئيسي، كانت الهمهمات تسمع الموتى عن انتقام الحجر لظالم البشر وسارق الميراث، هذه الماكينة والأرض المحيطة بها أخذها بعقد مزور وحرم شقيقاته الميراثَ، رغم مرور سنوات طويلة لم ينسَ أحدٌ، انتقمت الماكينة لدعوات الأرامل وغضب الأم المكلومة ولعنات الأجيال التي عانت شظف العيش بسببه، تعالت الهمهمات:

مَنْ يُصدِّق أنها استعصت على العمل حتى حضر وانحنى ليصلحها فاشتغلت فجأة وسحبت الشال الذي كان يطوق به عنقه ففصلته تقريبا عن جسده ثم عاودت التعطُّل من جديد، يمهل ولا يهمل.

دفنوه، عادت القلوب الرمادية تتكلم بعد همهمة.

في اليوم التالي كان العزاء، حضر القاصي والداني، كما حضرت أخواته في صمتٍ لا تزينه الدموع.

كان الجميع مُتحفِّزًا ينتظر لحظة الانفجار، حتى حدثت في نهاية اليوم حين تحدثت الشقيقة الكبرى أم حبيبة:

مات، ولا بد أن يرتاح، هناك فرصة لنسامحه، أصلِحوا ما أفسده.

صاحت زوجته الغاضبة:

عَزَّيْتُم وانتهى الأمر، ميراثه لأولاده، الذي بيننا وبينكم قد مات، لا نريد أن نراكم مرة أخرى.

كانت الكلمات حاسمة صادمة.

لم ينطق أحد، خرجت عائلة غريب وقلوبها قد امتلأت عن آخرها بالغضب والألم.

اجتمعت ليلى زوجة غريب بأبنائها، أربعة شباب وثلاث فتيات أكبرهم سلطان في الحادية والعشرين من عمره، ضخم الجثة، فاشل في التعليم مثل كل إخوته، يساعد والده منذ الصغر:

لقد مات أبوكم، ولم يعد لنا عيش في هذا البلد، المبنى الذي يضمُّ الماكينة يتوسط البلد ويساوي عدة ملايين، سنبيعه بعد الأربعين ونشتري بيتًا ومصنعًا في مكان آخر.

وافق الجميع وبدأ كل منهم يُمنِّي نفسه بالمرحلة الجديدة.

أخفوا الأمر عن كل مَنْ حولهم، بعد عشرة أيام طويلة عليهم حضر المشتري بالعقود الأولية ومُقدَّم الثمن، احتفوا به وأعدوا له وليمة كبيرة، بعد انتهاء الطعام جلسوا في غرفة الاستقبال، الأم وأولادها، المشتري ومحاميه ومعاونه، كان الغروب قد خبأ شمس الخريف المتقلبة بستار من سحب متوسطة عابرة، بدأ المحامي في قراءة العقد الأصلي، عندما وصل إلى كلمة الماكينة انقطعت الكهرباء، تأفَّف الجميعُ، سبَّ البعض، احتضن المشتري أمواله. قامت الأم لإحضار مصباح مُؤقَّت، فوجئت أن الكهرباء قد انفصلت فقط عن منزلهم، طلبت مِن سلطان أن يسرع لمعرفة سِرِّ انقطاعها، فوجئ بأن المفتاح الرئيسي مغلق، تعجَّب بشدة وأعاده إلى وضعية العمل، أخذ مكانه في المجلس، عاود المحامي القراءة، توقَّفت أنفاسهم حين انقطعت الكهرباء مرة أخرى عند الكلمة نفسها.

بدأ الجميع يتململ، بينما شَكَّ المشتري أنها لعبة ما لأخذ أمواله. أكثر مَنْ أصابها الرعب هي أم سلطان، قامت مع ابنها هذه المرة تستطلع الأمر، كان المفتاح الرئيسي مُغلقًا للمرة الثانية، نظرت لابنها طويلًا ثم طلبت منه أن يحرس المفتاح لعل أحَدا من عائلة زوجها اللعينة يقوم بخدعة ما.

عادت إلى ضيوفها مُتعلِّلةً بقدم الوصلات الكهربائية، طلبت منه أن يتجاوز المقطع الأول ويكمل قراءة العقد، استمر المحامي في تلاوة البنود حتى جاء ذكر مالك الماكينة، ما إن ذُكِرَ اسم غريب حتى سمعوا صرخة قوية ومعها انقطاع للكهرباء في المنطقة بأكملها، صرخ الجميع، فَرَّ المشتري ومَنْ معه دون أن ينظروا خلفهم وهم يتعثرون في كل شيء على ضوء هاتف محمول، تمالَكت الأم نفسها وطلبت من أبنائها التوقُّف عن الصراخ، ذهبت مُسرعةً إلى سلطان على ضوء الكشاف، وجدته مُلقًى على الأرض، انكبت عليه تحاول إيقاظه، جاءت ابنتها الكبرى ومعها زجاجة مياه ألقتها عليه، أفاق أخيرًا وهو يرتعد بشدة، أخذ يهذي بكلمات غير مفهومة، كانت حرارته مرتفعة جدًّا وقلبه ينبض بعنف، تفحصت الأم مكان المفتاح الرئيسي، فوجئتُ به مُحترقًا، أسندوا سلطان حتى وصل إلى فِراشه، طلبت من ابنها سالم سرعة إحضار مَنْ يُصلِح الكهرباء، بينما طلبت من ابنتها حنان أن تستدعي الطبيب المجاور على وجه السرعة.

عادت الكهرباء بعد عدة ساعات من العمل، كان تفسير الكهربائي أنه ماس مجهول السبب أدى لاحتراق اللوحة بالكامل، بينما أكَّد الطبيب أن سلطان قد تعرض لصدمة عصبية شديدة.

انتشر الخبر في الحي كله، لم تتحسن حالة سلطان لعدة أيام، أخيرًا استعاد وعيه كاملًا، طلب الانفراد بوالدته، صدمتها كلماته تمامًا:

- لقد كان هو، والدي، غريب.
- ماذا تقول؟ هل جننت؟! لقد دفنتَه بيدك؟

- أرجوكِ صدقيني، لقد كنتُ حذرًا تمامًا، حتى أني ظللت متعلقًا بالمفتاح، فجأة، وجدته أمامي، كانت ملامحه غاضبة ساخطة، وقد رأيت النار تخرج من عينيه.
- هل عُدتَ لتناول المخدرات يا ابن المجنونة؟
- لا أعرف.
- أكيد أقارب والدك العقارب عملوا لنا عملًا سُفليًّا بوقف الحال، غدًا تقف على قدميك، سأستدعي الشيخ حازم ليُبخِّر المنزل ويتتبع أثر هذا العمل الحقير.

جاء الشيخ حازم بأدواته وشياطينه، اشترط إخلاء غرفة كاملة من كل ما فيه ذكر لله، بدأ في ممارسة طقوسه في حضور سلطان وأمه، رائحة البخور تُعبِّق المكان، تلاوات بلغة غريبة وألفاظ عجيبة يُردِّدُها، كاد سلطان يضحك، دخلت الشقيقة الصغيرة تحمل كوب ماء ساخن طلبه الشيخ.

فجأة فتح عينيه وصرخ في فزع:

- لقد أحرقتِ لي أحدهم أيتها اللعينة، ألم أقل لا أريد شيئًا عليه اسم الله؟!

أسرعت الأم بدفع ابنتها خارجًا، فقد نسيت أنها ترتدي سلسلة عليها لفظ الجلالة.

أخذ الشيخ يضرب رأسه وهو يعتذر بكلمات واضحة أحيانًا وغامضة أغلب الأحيان، شعروا بالاختناق من كمية البخور الهائلة التي وضعها

ومواد أخرى دارت برؤوسهم، فجأة لملم أشياءه في فزعٍ شديد وخرج من المنزل صارخًا:

لن نقدر عليه، لن يقدر أحد عليه، لقد أصابه الجنون.

حاولت الأم الجري خلفه لتفهم على الأقل ما حدث، لكنه لم يُعقِّبْ.

عادت أكثر حيرة وخوفًا، اقترب منها سلطان والدموع تملأ عينيه:

ما رأيك أن نجرب الشيخ صابر، يقولون إنه يعالج بالقرآن ويطرد الأرواح.

نظرت إليه الأم متعجبةً ثم قامت تقلب الكلمة:

أرواح؟! يعني الشيخ المشهود له بالقوة والمعرفة وتسخير الشياطين يجري مرعوبًا والشيخ الطيب سيفعل ما لم يستطعه؟!

عمومًا لا ضير من التجربة، ولو أني أعرف النتيجة مُسبقًا.

حضر الشيخ صابر بعد أن شرح له سلطان كل ما حدث، بدأ حديثه بالأذكار والأحاديث والآيات الطاردة للشياطين ثم وجَّه حديثه للأم: العدل نجاة، أعطوا كل ذي حَقٍّ حقَّه يعالج الرضا الغضب الذي يحيط بهذا البيت.

غضبت الأم بشدة وطلبت منه التركيز في عمله دون فلسفة، كل صاحب حق راصد وكل مرصود محظور.

نظر لها مُشفقًا ولكنه آثر عدم المجادلة في هذه المرحلة.

طلب إعادة المشهد كما حدثَ ، جلست العائلة كلها في الغرفة الرئيسية تترقَّب، بدأ سلطان في قراءة بنود العقد بعد أن حصلوا على نسخة مشابهة، بدأت أعصابهم في التوتر ونبضات قلبهم في التسارُع والعرق الغزير يغطي

جباههم، صرخت الصغيرة من الرعب حين اقترب سلطان من ذِكْر الماكينة، تسلَّلَ الشيخ في هدوء إلى مفتاح الكهرباء الرئيسي، قرأ سلطان الكلمة، صرخ الجميع بمن فيهم الأم حين انقطعت الكهرباء مِن جديد، عادت الكهرباء بعد قليل، ثم ظهر الشيخ مُمتقع الوجه ترتعد أطرافه وهو يردد الآيات القرآنية بصوت مهزوز مرتفع، هدؤوا جميعًا بعد قليل، أفاق سلطان من إغماءته وانهار في بكاء مرعوب، تمالَك الشيخ نفسه بعد أن ارتشف ماءً باردًا، ثم أخذ يردد:

الغضب يحيط بالأحياء والأموات، الزائلون زائلون، والمقاومون مسحوقون، النار تحرق الحاضر، والسراب يغلف المستقبل، من ارتدى أجنحة الشيطان ضَلَّ، ومَن ضلَ غَلَّ، ومَن غَلّ كُفيَ على وجهه في الجحيم، الحق نور والظلم ظلمات أبدية، الغضب يحيطكم، الغضب يحيطكم، الغضب يحيطكم، ولن يكفيه موتكم.

أكملت كلمات الشيخ على ما تبقى من أعصابهم، انهارت الأم وأخذت تضرب وجهها:

- ماذا نفعل يا شيخ؟
- مسار الموت مرصود والباب الفاصل مفتوح، لا بد أن تغلقوه.
- وماذا نفعل؟!
- يقتاتون على الدم الأسود، أغلقوا الباب بالملح والعدس والمسامير.

طلبت منه تفسيرًا واضحًا لما يقول.

- الدَّم المُراق على درب الموت يمنع غلق الباب وانتقال مَن يجب أن ينتقل، الروح لم تخرج وقت خروجها، بل خرجت حين أُغلقت الأنوار وعلى وَقْعِ الصُّراخ والعويل، كل نور في حضرة الموت ظلام، وكُلٌّ غُيِّب في حضرة الإذن منظور، عند مغيب الشمس أو عند شروقها، وفي المسار نفسه الذي اتخذه سلطان بجسد والده والدماء تقطر منها، يعاود هو نفسه الحضور ناثرًا أمام خطواته الملح الخَشِن غير المُصفَّى، والعدس المُغطى وغير المغطى، ويدقُّ مسمارًا في منتصف المسار على رأس كل خطوة، مسمار مدهون برائحة عرق الجسد الغاضب، ومبيت في كأس من البخور المُنقَّى المليء بالعنبر المركز، في غرفةٍ مظلمة بلا أبواب، كلُّ يوم يمرُّ يزداد الغضب، والإنذار سيتحول إلى فعل لا يُبقي ولا يذر.

خلال ثلاثة أيام كانت كل الطلبات قد أُعدت، انتشر الخبر في المكان، اجتمع المتطفلون والمحبون والشامتون في اليوم الموعود، جاء سلطان إلى الماكينة حيث أُصيب والده، بقيَ على بزوغ الشمس وقت قليل، بدأ الشيخ في ترتيل تلاوات على المكان كله، أحس الجميع اهتزازًا خفيفًا يزداد قوة، وضع سلطان الجرعة الأول ثم دقَّ مسماره الأول، سمع الجميع صوت صرخة عظيمة، ارتعد سلطان، طلب منه الشيخ ألا يلتفت ولا يستمع ولا يتأثر، فالقادم أكثر صعوبة وألمًا.

استمر في طريقه والأصوات تزداد قوة، ظهرت آثار نيران قريبة، أسنده الشيخ بينما ابتعدَ الجميع، شعر سلطان بثقلٍ شديد في جسده ومقاومة هائلة على يده، استمرَّ الشيخ في دعمه حتى وصلوا إلى المنزل مع شروق

الشمس، دخل إلى غرفة أبيه وجسده يكاد يتمزق، ما إن دخل حتى أغلق الباب عليه، صرخ من الرعب دون أن يتوقَّف عما يفعل، كان صوت الشيخ يبتعد تدريجيًّا وهو يطلب منه الصمود والاستمرار حتى انقطع تمامًا، توقَّع الشيخ مثل هذا الموقف وطلب منه ألا يتوقف أبدًا حتى يلقي ما معه على فراش والده ويدق المسامير حوله.

ازدادت المقاومة بشدة حتى ذُهِلَ عندما رأى الفراش يحترق أمامه، ثم مادت به الأرض حين رأى وجهًا ناريًّا يتشكل بصورة والده وسط الفراش، لكنه صمَّم على الإكمال حتى النهاية، زحف على ركبتيه حتى لامس الفراش، ارتفعت الأصوات المرعبة من حوله حتى كاد قلبه يتوقَّف، في لحظة واحدة، ألقى ما معه على الفراش، هدأ كل شيء في الوقت نفسه الذي أُغشيَ عليه فيه.

فتح عينيه على مشهد غريب جدًّا، وجد نفسه محمولًا على الأعناق والصُّراخ في كل مكان، ميَّز صوت والدته تصرخ بحرقة، حاول الفكاك من مكانه، لم يستطع، حاول الصراخ، كان في فمه شيء ما يغلقه تمامًا، أحس بنفسه ملقًى في مكان ما أظلم بعد قليل وابتعدت الأصوات، تخلَّص أخيرًا من الرداء الذي كان يكبله، وجد نفسه عاريًا في مكان مظلم، سمع أنفاسًا لاهثة وحرارة تزداد تدريجيًّا، التفت، وجد الوجه الناري يبتسم له.

خلف ظلال الستائر

حانت منه نظرة من خلف الكواليس الجانبية للقاعة، أبهره الحضور، المسرح كامل العدد، ليلة الافتتاح المنتظرة، جهد شهور وأحلام سنوات، سرت في جسده رعشة حماسية اجتاحت مشاعره، تأمّل لحظات مسيرة حياته منذ وعى على حلم، تعثرات كثيرة وتحضير طويل وتجارب محدودة وإحباطات بعدد الشعيرات البيضاء التي تسللت إلى سنوات عمره الأربعين، لكن لا يهمُّ، ارتبط حلمه بحلم أصدقاء عمره. المخرج المسرحي المغمور والكاتب الذي لم ينل شهرة يستحقها بعد، ووضعوه على مائدة الإصرار حتى وجدوا ممولًا أكثر جنونًا وإيمانًا أوصلهم إلى أكبر مسارح المدينة وبدعاية كبرى جمعت كل الهواة والمحترفين في بوتقة واحدة حتى ليلة الافتتاح المرتقبة، كل شيء في الحياة لديهم يبدأ أو ينتهي الليلة.

أخذ نفسًا عميقًا استرد به عقله من خياله على وقع ربتات متحمسة على كتفه يعرفها جيدًا، تحدَّث والدموع في عينيه:

- يبدو أن الحلم سيصبح حقيقة يا شعراوي، من يصدق أننا هنا اليوم يا صديقي!
- فعلًا يا فؤاد، مَن يُصدِّق أننا تجاوزنا المستحيل لنصل إلى هذه اللحظة، كل شيء عند مستوى أيدينا.
- هيا بنا، نحن في بداية الليلة، على أول طريق الحلم، أنا وأنت تحت رحمة التفاصيل الصغيرة، لقد تعبت معهم كثيرًا جدًّا حتى وصلت إلى ما أريد كبطل للعرض، كما تعبت أنت في الإخراج ورضوان في

التأليف ثم في تعديلات النص التي لا تنتهي، سأضع اللمسات الأخيرة على ملابسي ومكياجي، بقي على رفع الستار نصف ساعة، قلبي يكاد يتوقَّف من الخوف والترقُّب.

- اهدأ قليلًا يا صديقي، نحن لم ننم تقريبًا منذ يومين، وأنت أكثر من سيبذل مجهودًا الليلة، اذهب إلى غرفتك وأغمضْ عينيك عشر دقائق لتلتقط أنفاسك.

فُتح الستار أخيرًا، كان فؤاد في صدر المشهد جالسًا على مقعد متهالك وحيد في جانب خشبة المسرح، ينفثُ دخانًا من فمه، يرتدي ملابس قديمة، نال تحية محدودة رغم أن صور الدعاية تُشير إلى أنه البطل، لم يهتم لذلك فهو يعلم أنها بطولته المطلقة الأولى وأن معظم الجمهور قد حضر لرؤية ممثل الأدوار الكوميدية الثانية الشهير، أغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا، ثم قفز بملامح جادة فتعثر دون قصد، وضع رضوان يده على قلبه، كاد قلب شعرواي يتوقَّف، لكن الجمهور ضحك بشدة، خف الضغط على فؤاد، ابتسم، حلّق في سماء أحلامه، ترك نفسه، بدأ يستمتع، سيطر على خشبة المسرح وعلى عقل كل مُشاهِدٍ وقلبه خلال خمس دقائق، ضجت جنبات القاعة الكبرى بالضحك المتواصل طوال المشهد الأول الذي استمر ثلث ساعة بدلا من خمسة دقائق، خرج فؤاد أخيرًا والجميع يستعدُّ لاستقباله بعد أن دوت القاعة بالتصفيق بعد الإفيه الصولو الأخير.

انهار على كتف شعراوي يبكي بمرارة، تجمّعوا حوله يواسونه في ذهول، تركهم وركض ناحية غرفته يُكفْكِف دموعه ليستعدَّ للمشهد التالي.

دخل المسرح هذه المرة أكثر ثقة وسيطرة على الشخصية، ما إن أطلَّ برأسه حتى ضحك الجمهور وقابلوه بعاصفة من التصفيق، خطا فوق السحاب، استعاد صولاته وجولاته في مسرحيات الشارع التي طالما مثَّلها مع أصدقائه وأسرته وجيرانه، بكى حين تذكَّر رفضه المتكرر من المعاهد الفنية، ضحك الجمهور لبكائه الكوميدي، وضع يده على ثقة بعض من آمنوا بموهبته وطلبوا منه الاستمرار، ثم نكز بقوة من نعته بالفاشل. حتى أقرب الناس إليه، تألَّم الممثل الذي أمامه من قوة النكزة فدفعه برفقٍ ليسقط على رأسه، كم سقط على رأسه من ضربات الحياة المتتالية والأمواج الكاسحة التي كانت تُعيده آلاف السنوات.. كل خطوة على الطريق، تألَّم بشدة، وما الألم؟ إحساس سلبي يهاجم الفشلة والمحبطين، تحامَلَ على ألمه ووقف، الليلة ليلته، نظر لذلك الناكز شزرًا ثم تصنَّع ضربه بعنف، مِن مفاجأته سقط هو الآخر، مشى متنشيًا على المسرح، هذه ساحتي الجديدة، هذه أرض انتصاري العظيم، ما التاريخ؟ ملخص التاريخ أيام انتصارات القادة والأنبياء، لكل أمة تواريخ محدودة، وتاريخ أمتي يبدأ من اليوم، أنا المظفر فؤاد، أنا فؤاد قلب الأسد، أنا فؤاد الأكبر، سخّرت لي القلوب والشفاه، تضحك بحركة مني، تبكي بنظرة مني، أنا النبي الخاتم في عالم المشاعر.

أنهى مشهدًا تلو الآخر والجمهور عبيد لكلماته، سَحَرَ قلوب الناس حتى انتظروا حضوره بدون صبر.

انتهى الفصل الأول، راحة ربع الساعة، الجمهور في حالة ذهول، أين كان؟ مَنْ هو؟ مِنْ أين أتى؟ كيف اختفى طوال هذه السنوات عن المشاهد؟

لحقه شعراوي ورضوان غير مصدقين، مَن أنت؟ أين كانت تلك الطاقات مختفية عنا؟ كيف لم نرَها بهذا التوهُّج واللمعان من قبل؟ نعم كنتَ متميزًا، لكنك لم تكن متفردًا.

عاد إلى المسرح طائرًا بأجنحة الأمل، تألّق من جديد، طغى على مَن حوله حتى أصبحوا أقزامًا، رقص بقدمين رقيقتين وارتدى ريشة مايكل أنجلو فرسم لوحة عبقرية في سقف المسرح حتى تعلقت بها العيون طوال الوقت. صدح بأبيات عنترة ورقص بأقدام نجوم البولشوي، تحدى نفسه كما تحدى أبو فراس أبا الطيب، حصل على أوسكار أعظم فنان في التاريخ من عيون الضاحكين. صال وجال في ملعبه كما فعل بيليه وميسي، تألق في رداء الإبداع فدخل موسوعة جينيس وكتاب ابن المقفع والسيرة الهلالية وألف ليلة وليلة.

تنقَّل بين مشهد سحرة فرعون وتسخير الجن في قصر سليمان، امتطى حصانًا بريًّا في سفينة نوح وشاهد الطوفان يغير التاريخ القديم، عزفَ مُنفردًا كما فعل بيتهوفن وقد انفصل عن العالم فبهر الجميع.

انتهى الفصل الثاني، دخل غرفته مُحلِّقًا في بلاد العجائب يتأبط ذراع أليس الأسطورية، دخل خلفه رضوان وشعراوي وهما في قمة الانبهار والسعادة، ربت شعراوي على كتفه منتشيًا:

– لقد عبرنا يا صديقي، الجميع منبهر، الصدمة زلزلت أرجاء المسرح ونبضات القلوب، النقاد والصحفيون أصيبوا بالدهشة من أدائك

المذهل، ستتصدر الصفحات الأدبية والفنية غدًا، حقيقة، لم أكن أصدق أنك ستكون بهذه العظمة والتألُّق.

كانت أنفاسه تتلاحق غير قادر على السيطرة على انفعالاته، انهار في بكاء شديد، ضحك بجنون، استند على رضوان وهو يصرخ:

- أضواء النجوم تصل إلى الأرض بعد رحلة طويلة متعبة خيالية، لقد وصلت اليوم يا أصدقائي، على مشارف النور، كل شيء يهون من أجل هذه اللحظة.

لم تحمله قدماه، كان يحارب الإرهاق باستماتة، جلس على المقعد مُنهكًا، قلق رضوان عليه:

- إنك مُرهَق تمامًا يا فؤاد، لم تنم منذ يومين ولم تأكل منذ الصباح ولك أكثر من ثلاث ساعات تصول وتجول على المسرح، الفصل القادم لن تغادر المسرح مطلقًا، كيف ستواصل؟

نظر له فؤاد بعين تكابر وقلب غير قادر على المواصلة، ابتسم:

- غدًا النوم سيطول، والطعام موجود طوال الوقت، سأغمض عيني قليلًا كعادتي، اتركوني عشرة دقائق وسأعود إلى ساحتي، الليلة ليلتي يا أصدقائي، سأضحي بعمري كله لتكتمل كما بدأت، روحي معلقة في أرجاء المسرح، ولن تتركه أبدًا.

اكتمل بناء الديكورات الجديدة، لم يظهر فؤاد، تأخَّر على فتح الستار الأخير، ذهب شعراوي ليستعجله، وجد غرفته مغلقة من الداخل، أخذ يضرب على الباب بجنون، بعد لحظات سمع المسرح يهتزُّ بتصفيق

مُتواصِل، أدرك أن فؤاد قد ظهر، تعجَّب بشدة، لكنه عاد مُسرعًا ليتابع العرض، وصل إلى الكواليس، إنه هو!

بدأ المشهد الأول بحركات من المفترض أنها صعبة، قفزات وانطلاقات من خلال حواجز وهمية، لكن فؤاد أداها بمهارة تعجَّب لها شعراوي ورضوان ومدرب اللياقة.

كانت قمة الدراما في الفصل الثالث حين يطير فؤاد في الهواء بمساعدة حبال خفية ثم يضربه أحد الممثلين بقنبلة كبيرة فتنفجر عن بعض الألعاب النارية الآمنة ثم يسقط على الأرض وتخرج روحه لتستكمل بقية المسرحية محافظة على الجو الكوميدي العام، ذُهِلَ شعراوي وبقية طاقم العمل، فؤاد يطير بدون مساعدة! هل من المعقول أن يكون تجليه العبقري قد ساعده على فعل معجزة جديدة! استمر المشهد وهو مُحلِّق بالمعنى الحرفي للكلمة في سماء المسرح. حدث الانفجار، سقط الجسد دون صوتٍ على خشبة المسرح، استمَّر ذهول شعراوي، كان قد توقَّف ومساعدوه عن عمل أي شيء، تحوَّل الذهول إلى رعب حين رأوا روح فؤاد تخرج من جسده، والجمهور يضحك مُعجبًا بهذه الخُدع العبقرية، كان المشهد خارج المنطق، وأي منطق في هذه الليلة المجنونة، جسد فؤاد مُسجَّى على طبقة رفيعة جدًّا في دور ثاني كرتوني للديكور، خرج جسم شبحي من الجسد يحمل صورة فؤاد ولكن بدون تجسيم.

ظنَّ الجمهور أنها استكمال للخُدع المسرحية الكثيرة في الفصل الثالث، وبدأت همهمات الإشادة بالمخرج العبقري والكاتب المبدع الذي تصوَّر وحقَّق المستحيل.

أسرع شعراوي ورضوان إلى غرفة فؤاد، طرقوا بجنون على الباب المغلق بإحكام، لم تفلح كل محاولاتهم لكسره رغم استعانتهم بعمال المسرح.

عادوا على وقع التصفيق المتواصل، اشتكى كل الممثلين من عدم قدرتهم على مجاراة فؤاد في حركته وسرعته، بقي مشهد أخير، طلب منهم شعراوي التحمُّل فقد اقترب بزوغ فجرهم جميعًا.

كان المشهد الأخير يعبر عن سيطرة فؤاد المطلقة على كل شيء، أغلبه حديث ذاتي وحوار مع أرواح أخرى من المفترض أن يجسدها بعض الممثلين.

جلس فؤاد في طرف المسرح، حدَّث نفسه في مرآة افتراضية:

- الصمت لغة العارفين، التأمل طريق العالمين، على النظر غطاء من نار يحجب النور، وفي القلب قدرات من أبعاد موازية، مَن أراد يستطيع، ومن حلم يمكن أن يحقق، الحياة باب وباب، لا تبحث أيها المدعي عني، قد كنت، وما كان سيكون، الماضي لن يعود، سيغلق الباب بعد الإذن، وكل شيء بإذن، لا سبيل للعودة، ولا تحاول الفهم.

نظر رضوان لشعراوي، لا يوجد هذا الحوار في النص؟ ارتجل فؤاد كثيرًا من المواقف، لكنه لم يبدل في النص من قبل.

لم ينتهِ كل شيء، ارتج المسرح ضحكًا حين شاهدوا كائنات بيضاء تطارد كائنات سوداء، انطفأت الأنوار، لمع الأبطال، توقَّفت جميعًا حوله، تنازعته، تارة يمينًا وتارة يسارًا، والجمهور يضحك، والكواليس تبكي في رعب، انتزعوا يدًا يسرى، ثم انتزعوا يدًا يمنى، نظروا إلى القلب النابض تحت الجسد الشفاف، مدوا أيديهم نحوه، الأبيض والأسود يتنازعان فؤاد المستسلم.

انقضوا عليه. ثم تلاشوا جميعًا.

انقطعت الأنفاس، عادت الأضواء، تعب الجمهور من الضحك، أسرع المخرج والمؤلف ناحية غرفة البطل، وجدا الباب مفتوحًا، دخلوا، كان فؤاد جالسًا على مقعده أمام المرآة المرصعة بالنجوم، ورأسه على المنضدة، تحسسوا نبضه، جسد بارد بلا نبض.

غضب الملكة السّعلاة

- أجب يا مُرْه بحق طَهَشٍ طهش، طَهْشِيرَهٍ طهشيرة، طَهْشُوهٍ طهشوة، جاروشَهٍ جاروشة جَنْجَروشَهٍ جنجروشة، حَبْشَرَهٍ حبشرة، أجب يا مره بحق سامٍ سام وبالذي تجلَّى للجبل فجعله دكًّا وخرَّ موسى صعقًا وبحق الملكِ الذي تُسرع إلى خدمته جبرائيل، أجب الوحا العجل الساعة.

كان الجميع يترقبون في حذر شديد ورعب كاملين، لم يحدث أي جديد، نظر الصابئي إلى تراجيم متعجبًا، طأطأ برقان رأسه إيذانًا بالانتقال إلى المرحلة التالية، تحدث إلى سفير صاحب المنزل:

- اليوم الإثنين، قبل الإثنين القادم يجب أن تجهز لنا ما يلي:

ماء زعفران، ماء ورد، جلد ضبع مع تراب من جحر نفس الضبع، ديك أبيض لم يتزاوج من قبل، طائر نورس حي، أربع بيضات بيضاء لدجاجة تبيض للمرة الأولى، ورق مصنوع من زهرة اللوتس، مقدار من بخور القصبر، ونريد فتاة صغيرة من عائلتك لم تبلغ بعد.

نظر الرجل لهم متعجبًا ومستصعبًا كل ما قالوه، فحدثه تراجيم بحسم:

- لم نأتِ من بلادنا لنلهو أو نُضيِّع وقتًا، تجتمع فوقنا وحولنا قوى لا قبل لك بها، والحل في يوم الإثنين، والنجاة في استكمال ما بدأناه، وإلا سيُحرق كل شبر من أرضك وسيُقتل كل روح فيها دم من دمائك، لا تراجُع الآن، سنقضي الأسبوع في التقرُّب وحَلِّ الطلاسم ومحاولة فهم العلامات، أغلقوا علينا جناحًا مستقلًا، لا ترونا ولا نراكم، واللعنة على المتسللين، والموت للمترددين، لا يزول الغضب إلا

بالقوة، ولا تكون القوة مع أهل القوة، للنار باب، وللجحيم أبواب، وما بيننا وبينهم باب لا يُفتح إلا بإذن.

دخلوا دون حديث وعلى رأسهم علامات مفزعة إلى الجناح الذي أعده أهل القرية لهم.

بدأت المداولات بين كبار القرية وتوزعت الأدوار، جمعوا من بعضهم من المال ما يكفي لاستكمال الطلبات، سافر أحدهم إلى بلد توجد فيه الضباع، بينما توزَّع آخرون في البلاد حتى أحضروا المطلوب، اجتمعوا جميعًا بعد منتصف ليل الأحد، أصبحت أولى ساعة في ليلة الإثنين، خرج الثلاثة للمرة الأولى، علامات الإعياء بادية عليهم، جلسوا دائرة حول حجرٍ كبيرٍ طلبوه من قبل، مزج برقان ماء الورد مع ماء الزعفران ثم أخذ منه مدادًا في قلم حبر فارغ وأخذ بالكتابة على الورق المصنوع من اللوتس، بينما جهَّز الصابئيْ جلد الضبع ووضع به تراب جحره ثم الورقة التي كتبها برقان، في الوقت نفسه كان تراجيم يفتح صدر طائر النورس ويُخرِجُ قلبه وهو على قيد الحياة ثم يقطعه إلى ثلاثة أجزاء بأسنانه ويوزع على الصابئي وبرقان، لاكَ كلٌّ منهم قطعته ثم وضعها في جلد الضبع وربطوه جيدًا، أحضروا الديك الأبيض ووضعوا الجلد في عنقه وثلاثتهم يرددون:

- الرَّحْمَنِ الرَّحِيم يا رؤوف يا عطوف أجب يا جبرائيل عليك السلام أنت وخدامك أبيض بحق الرحمن الرحيم وبحق الرؤوف العطوف وبحق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبحرمة الملائكة الموكلين بقوائم العرش هوزح.

اهتزت الأرض تحتهم، أو هكذا تخيلوا، ظهرت زعابيب مفاجئة تلتها أصوات صراخ جميع الحيوانات الموجودة في المنطقة، الديك مُتجمِّد كأنه ميت، ثم سمعوا صوتًا قادمًا من خلف ظِلٍّ كبير ظهر فجأة وسط البخور القصبري الذي أشعله برقان:

- مَن يدعو الملك؟ وماذا يريد؟

وسط سماع دقات القلوب المرتعبة تحدث تراجيم:

- الملك الأبيض الطيب العظيم، نرجوك أن تفك طلاسم الشَّرِّ وترفع أقدام القوة الخفية وتكشف المستور.
- الشَّرُّ أكبر منكم، والليل سيطول فوق أيامكم، والمرصود كثير، والراصد عظام أكلتها النيران منذ زمن الظلام، والحارس قد أصبح كتلة من غضب، والغضب شَرٌّ، والشر كبير.
- لكنك الملك الثالث، وما بين الملوك أسرار تفوق الليل والنهار.
- الملك الدلهاب يحرس الماء، والراصد والمرصود في الماء، والمطلوب فوقكم وتحتكم، حددوا المكان، واحذروا النار والماء، الطهارة هي المفتاح، والكلمة سهم سيغلق الزمان والمكان، الحذر الحذر. حولكم عيون ترصد، تأكل الأرواح وتحب الدماء، لو ضاع الطريق ستظهر لكم، ويرصد العيون عيون حمراء، الخطر حولكم، وحول الخطر أخطار، حان الوقت، ولا سبيل للتراجُع.

اختفى الصوت مع اختفاء الظلال.

فوجئ الجميع بالديك يترنَّح بشدة ثم يرفرف بجناحيه ويكاد يطير من فوق الأرض والأعجب أن البيضات الأربع ترصصن خلفه وكأنهن جنود تتبع قائدها، دارت معًا في الاتجاهات الأربعة ثم توجَّه الديك ناحية منزل قديم من دورين قرب الساحة التي تجمعوا فيها حتى وصل إلى الباب ثم أخذ يضرب عليه بمخالبه في جنون وهو يصيح صياحًا متواصلًا، صاح برقان:

– مَنْ صاحب البيت؟

أجاب رجل متوسط العمر وهو في قمة الرعب:

– أنا.

– يا رجب، لقد نقضتَ العهد، وأغضبتَ الراصد والمرصود، وضعتَ القرية كلها على حافة الجحيم. استخدمت تعاويذ شيطانية للبحث عن السِّرِّ القديم فتسببت في صدامات بين قوى لا قبل لأحد بها، منزلك الآن ساحة قتال، وقد حصلنا على هدنة لإنقاذ الموقف.

أكمل تراجيم:

– كلكم هنا أقارب كما علمنا، دمكم واحد، نريد الفتاة الصغيرة المختارة.

اقتربت الفتاة وهي في قِمَّة الرعب، لم تُكمِل التاسعة من عمرها، حجمها صغير وعيناها جاحظتان وخلفها أمٌّ منتحبة، أمسك بها الصابئي.

– مصير قريتك وأسرتك في يدك، ستدخلين في هدوء، ستخترقين زمنا وستتجاوزين حُجبًا، ستجدين سِردابًا بعد الباب، انزلي فيه بهدوء،

سأعطيك شمعة، كلما نزلت درجة ستسمعين أصواتًا كثيرة، لا تخافي ولا ترددي، في نهاية السِّرداب ستجدين غرفة مُظلمة، ستغلق الشمعة فجأة، لا تصرخي أبدًا، ستنير الغرفة بعد ذلك وسنستطيع الوصول إليك لأننا سنرى النور من هنا، لو فعلتِ ذلك سيتوقَّف الشَّر وستصبحون أغنياء جدًّا، لو نطقتِ كلمة واحدة ستختفين للأبد وستصيب اللعنة قريتك خمسة أجيال.

لم تستوعب الفتاة أيًّا ممَّا قال سوى تأكيده ألا تتحدث أبدًا.

تحركت الفتاة بعد أن أعطاها الصابئي الشمعة وجسدها كله يرتجف، وصلت إلى الباب الذي كان مغلقًا بإحكام ففُتح من تلقاء نفسه، دخلت وظلَّ الباب مفتوحًا، سارت قليلًا حتى اختفت في الظلام.

جلسوا ينتظرون حتى مر اليوم كله ودخل الغروب التالي، تعالَت الهمهمات وسقط البعض من التعب، لكن الغريب أن برقان كانت تظهر عليه علامات الارتياح كلما مَرَّ الوقت وكان الصابئي مُنكفئًا على تعاويذه، وتراجيم يكتب على ما تبقى من ورق اللوتس حينًا وحينًا يُشارك الصابئي تعاويذه. فجأة، سمعوا دوي صرخة قوية ثم أُغلق باب المنزل بعنفٍ، أسرع رجبَ ووالدا الصغيرة في محاولة فتحه فلم يستطيعوا، أخذت الأمُّ في النحيب وأسرع الرجال لمحاصرة الثلاثة الذين يعيشون في عالمهم، بغضب بالغ صعد تراجيم على الحجر الكبير وصاح في الجميع:

- الصمت الصمت أيها الأغبياء، لقد تحقق المحظور وانهار الجسر الواصل بين الحجب الخفية، لقد حذرناكم، وحذرَنا جميعًا الملك مره، لو حاولنا الدخول عنوة سيختفي الراصد والمرصود مئة عام.

صاح رجب:

- لا نريد شيئًا الآن، أنقذونا من اللعنة وأعيدوا لنا ابنتنا.
- ثلاثة أيام، لكن مع عودتها سيفتح عليكم باب آخر لا نعلم ما سيأتي منه، لكنه بالتأكيد شَرٌّ أكبر منكم جميعًا.

دخل الثلاثة إلى مكانهم مرة أخرى، وظلت القرية ثلاثة أيام في حالة ترقُّب ورعب، حتى كان يوم الجمعة، خرج الصابئي وهو في حالة يرثى لها، ثم خلفه برقان وتراجيم الذي بدا في حالة غضب عارم ثم صرخ فيهم:

- الفتاة فوق سطح المنزل المرصود، والباب قد فُتح، ترقبوا اليوم الغضب ممن أقلقنا راحتهم ونقضنا عهودهم، ستأتيكم في ثوب مُشتعِل، ووهي ترقبكم الآن.

أسرع شباب القرية نحو المنزل فوجدوا الباب مفتوحًا، صعدوا إلى السطح فوجدوا الصغيرة نائمة ولم يصبها خدش واحد، أيقظوها، اكتشفوا أنها فقدت النطق، نزلوا مسرعين على صوت صراخ متواصل، خرجوا تِباعًا من باب المنزل على ساحة القرية فوجدوا مشهدًا مرعبًا، عدد كبير من القطط يقف في صَفٍّ مقابل وكأنهم جنود يستعدون للحرب، ثم فتحت الصفوف لتظهر من خلفهم ظلال متراكمة حجبت ضوء الشمس، ظهرت وسط

الضباب كالشعلة الملتهبة، عظيمة الطول والعرض، وضحت ملامحها أخيرًا، أنياب تقطر دمًا وعيون تشعُّ غضبًا، صرخ تراجيم:

– الملكة السعلاة؟ أي شَرٍّ حلَّ بكم.

أشارت بإصبع مُستدقٍّ طويل نحو رجب، رغم أنه حاول الهرب. وجد نفسه يقترب منها دون أن تتحرك قدماه. انقضّت عليه وهو مسلوب الإرادة على مرأى ومسمع من الجميع، تسلل برقان خارجًا وبدأ في قراءة تعاويذ متعددة. أصمَّ صوت مواء القطط الآذان، حركت جسد رجب في الهواء ولعبت به كما تفعل القطط مع الفئران التي تصطادها حتى تهشمت عظامه، ثم غرزت أنيابها البرونزية في جسده، وبينما هي مندمجة في نهش الجسد سمع الجميع صوتًا قادمًا من بعيد، ابتسم برقان، توقفت السعلاة، اختفت القطط، ظهر من بعيد أثر لغبار، ثم توقف كل شيء لحظاتٍ، انفض الضباب مع الغبار، ظهرت في حدود القرية عيون حمراء متراصة في نظام سهمي، صرخت السعلاة وهي تنظر لبرقان متوعدة، حاولت الهرب، دوَّى صوت عواء الذئب القائد فأحاطت بها الذئاب من كل جانب، هرب أهل القرية كلٌّ إلى منزله، بينما استمر تراجيم والصابئي مع برقان في مراقبة المشهد العنيف، انقضت الذئاب عليها وهي تصرخ متوعدة:

– سيُفتح عليكم باب جديد، سيخترق حُجبكم غضب الجحيم، اللعنة على من يفتح الأبواب بدون إذن أو حساب!

اختفت في حربها الأبدية.

فتنة الموت الأول

جلس على مؤخرته المكتنزة الشاكية من النتوءات الصخرية فوق القبر العشوائي الذي يتوسط قبورا مستوية، تأمل في اللوحة الرخامية الفاخرة للقبر المرتفع مترين أو أكثر عن سطح التربة الغضة في أصلها، لم يأبه لشكاوى مؤخرته، كان يغيب شيئا فشيئا عن الوعي التقليدي بفعل سيجارة الحشيش التي يعاملها بعشق المتيم ويتلمسها بلهفة اللقاء بعد غياب ودفع فيها كل ما يملك وحرص على شرائها من أفضل بائع معروف في المنطقة، اللوحة الرخامية لعائلة الزاهد أغنى عائلات المنطقة للمقبرة التي تتوسط بصلَف وكبر منطقة المقابر القديمة، ورغم أن العائلة شيدت مقبرة أكبر وأعلى في وسط أراضيهم التي تحيط بالقرية من كل جانب، إلا أن هذه المقبرة التي تضم رفات أجدادهم من خادمي الحكام عبر التاريخ تحظى دائما بالعناية والرعاية والاهتمام الدائم.

بعد أن توازن رأسه وشعر بالشجاعة تتمكن من أوصاله وكفت مؤخرته عن الشكوى، أمسك بالفأس الضخم الذي يمثل رأسماله وانهال على الرخامة يقطعها إلى أجزاء صغيرة، ثم انهال على بقية أركان المقبرة حتى جعلها حطاما، جلس من جديد على القبر القديم الناتئ يلتقط أنفاسه، ثم أخذ يفتح طريقا في وسط المقبرة حتى وصل إلى الهياكل العظمية التي تملأ جنباتها، أحضر بعدها دلوا مليئا بالبنزين وألقاه عليها، ثم أشعل سيجارة عادية وألقاها وهو يضحك ، ارتفع اللهب إلى عنان السماء، أسرع هو في الاختباء بعد أن سمع همهمات تقترب، ارتفعت الأصوات:

– حريق في المقابر.

اجتمعت البيوت القريبة، صعد الرجال تباعا يستطلعون الأمر كانت أول صرخة:

– مقبرة عائلة الزاهد تحترق، إنهم يُعذَّبون في الجحيم.

انتشر الخبر كالنار في الهشيم حتى وصل إلى البيت الكبير مزدانا بالفرحة والشماتة والترقب.

نزل نائب الدائرة السيد الزاهد غاضبا مصطحبا كلابه وحراسه وتوجه ناحية المقابر، كان ضابط القسم القريب قد وصل مع المطافئ والكثير من أفراد الشرطة، أبعدوا الجميع عن المنطقة واستطاعت مياه المدفع القوي للسيارة أن تطفئ النار أخيرا مع شروق شمس اليوم الجديد.

انهارت المقابر الضعيفة والقديمة تحت وطأة قوة المياه وكعوب أحذية الجنود الثقيلة التي كان كل تركيزها على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مقبرة كبار المنطقة.

– إنهم يحترقون في قبورهم، كانوا ظلمة، إنها آية من آيات الله، معقول، طوال كل هذه السنوات وهم يعذبون بالحرق في قبورهم، إنها عدالة السماء يا أهل القرية.

لم يعد يحتمل، صرخ السيد الزاهد في الجميع:

– ما بكم أيها الشامتون؟! أليس هؤلاء من أنقذوكم من الجوع والعري؟! أليس هؤلاء من بنى بيوتكم ومساجدكم وعبدوا الطرق وأنشأوا المدارس والوحدة الصحية؟! لا يمكن أن تكون هذه هي نهايتهم؟ لماذا يكمن كل هذا الحقد في قلوبكم.

صمت الجميع، خوفًا وترقبًا وشماتة أيضًا، لكن شيخ القرية كسر حواجز الصمت وقام خاطبًا:

- توبوا إلى الله يا آل الزاهد، إن عذاب القبر علامة مرتبطة بالنار، وإن النار التي تعذب أجدادكم ستطالكم لا محالة، لقد استعبدتم الناس بأموالكم الملوثة، اشتروا جنتكم ونقوا أموالكم، إنهم يُعذَّبون وأنتم ترفلون في مواريثكم منهم، أنقذوهم وأنقذوا أنفسكم قبل فوات الأوان.

ساد الصمت من جديد، كان آل الزاهد جميعًا يبكون وقد ارتعدت أوصالهم، قبل أن ينطق السيد الزاهد من جديد، كان الضابط يدفع أمامه بعنف صاحب المؤخرة المكتنزة وقد أصيب إصابة بالغة وهو يحاول الهرب، وجدوه خلف المقابر عاجزًا عن الحركة، صاح الضابط:

- هذا الحقير هو من أشعل النار في المقابر، وجدنا معه دلوا به بقايا بنزين ويده محترقة جراء قربه من النار التي أشعلها.

تحول الندم إلى غضب عارم، أخرج السيد سلاحه من عباءته وأطلق طلقة مباشرة نحو الشاب فاستقرت في رأسه، هلل آل الزاهد فرحا، نكس أهل القرية رؤوسهم من جديد، بينما صاح الشيخ:

هذا مفسد في الأرض يستحق الموت. ولا وجود لعذاب القبر إلا في كتب المتطرفين.

السيرة الذاتية لوحيد القرني

حلم هو أم حقيقة؟ حقيقة هي أم حلم؟ لابد مما لابد منه، ضرب لا وعيه بوعيه ليتقي سقوطًا حرًا من ارتفاع غير معروف، إلى هوة لا نهائية، أفاق على صرخة مدوية هزت أرجاء السكون المحيط بفراشه الفقير، محطم الزوايا، والقائم بمعجزة مستندًا على جدار متآكل تحت سقف خشبي، ظل غذاءً لجماعات النمل سنوات طويلة، حتى اختفت في ظروف غامضة، ربما بعد أن امتصت روح المكان، وقضت على الحياة فيه، أخذ نفسًا عميقًا ملوثًا بعوادم السيارات القديمة المنتشرة أسفل نافذته المتهالكة والتي لا تمنع صوتًا ولا تصد ضوءًا ولا تعزل رائحة، لكنه اعتاد كل ذلك منذ آخر أزمة صحية حدثت له قبل اختفاء النمل بفترة بسيطة، سعل بشدة وهو يشعل سيجارة ملفوفة بمهارة من تبغ يخلطه بمواد خاصة جدًا. يحصل عليها من نواتج حفر النمل العضوية التي ما زالت تملأ بعض التجاويف بعد مرور كل تلك السنوات، كانت دائما سره الخاص وهو يدعو أقرانه ومحبيه لغزوة خروج من الوعي بفعل ذلك المكوّن الغامض، يقسم أنه شاهد النمل يدخّن في جوف الليل عدة مرات قبل أن يستجمع شجاعته ويطرد هاجس الجن المسيطر على العصور العقلية الشعبية، ويتتبع مصدر الصوت والرائحة، حتى وجد السقف يشتعل كل فترة محددة بفعل تجمع كبير للنمل في مكان واحد يتمتعون وحدهم بذلك الناتج الغامض، لم يقتنع بتفسيرات البعض أن ما يشبه النار هو في الحقيقة ناتج عن احتكاكات تجمعات النمل مع الخشب في محاولاتهم لاستخلاص مكوناته العضوية، أجمل لياليه أصبحت التالية على تجمع النمل الناري، يجد كتلة متميزة من النواتج يجمعها بحرص شديد ويضعها في إناء خاص، ثم يقسمها على

جرعات محددة كان يشارك فيها بعض أصدقاءه، لكن مع هجرة النمل الغامضة أصبح يستأثر وحده بتلك الجرعات في ليال محددة، يغيب عن الواقع الذي يزداد ضبابية كلما ظهر الشعر الأبيض في مكان ما بجسده، لم يعد يشاركه في غرفته القديمة ـحد منذ توفيت والدته قبل هجرة النمل بعام تقريبًا. ولم يعد يفضل الخروج منها بعد أن اختفى أنفه وظهر مكانه نتوء عظمى عجيب، بعد اختفاء النمل بعام تقريبًا. لم يعد يطيق نظرات الناس، كانت متعجبة بشدة على حاله وهو طبيعي مشدود القوام وافر الشباب غزير الأحلام، فكيف به بعد أن هزل جسده وغادره شبابه وهاجمته شيخوخة مبكرة بمصيبة ليس لها من قبل مثيل. لم يعد يخرج سوى منتقبًا كالنساء اللائي كان يخشاهن وهو صغير، تلك العباءة السوداء التي تخفي خلفها غموضًا مرعبًا. ونظرات تحمل جميع التأويلات الممكنة لشاب صغير، ليس منها تأويل إيجابي واحد. هاهو يلجأ إلى ذلك الرداء الخافي لما في داخله ليتلافى أسئلة لا يجد هو نفسه إجابة عنها ولا أي طبيب ذهب إليه، هي علامة غول من الجن اختار جسده ليكون وسيلته للتواصل مع العالم، ضحك من هذا التفسير المذهل لجارة عجوز تقطن غرفة مجاورة في البيت القديم المتشابه للوقف الخيري لمذنب ما يريد تطهير أمواله المسروق، حتى ظهرت بقايا أسنانه السوداء وانهمرت سوائل خضراء من فمه الكبير، هل ذلك الغول ضعيف النظر أم مجنون حتى يختار جسدًا ضعيفًا يائسًا محبطًا ليسكنه ويخترق بقرنه العجيب معالم وجوده الهامشي، انتصب على فراشه يحاول الوصول إلى السقف ليستخرج جرعة من بقايا النمل التي وجدها بعد أن نفذ مخزونه، مصنوعة في جوانب مختلفة من السقف،

وكأن النمل لم يشأ أن يهجره قبل أن يترك له مخزونًا يكفيه ما تبقى من عمره، هل علم النمل بالتحديد كم سيطول عمره فترك له الكمية المناسبة حتى يموت؟ هاجس هاجمه فجأة وهو يحاول تتبع المجموعات المتبقية ليحسبها ويقسمهاعلى معدل استهلاكه فيعرف ما تبقى من عمره، هل هناك علاقة بين القرن العجيب وعجينة النمل؟ هل استطاعت تلك المخلفات الغريبة التسلل إلى جيناته واختصار حياته في ذلك القرن الذي يزيد حجمه بصورة مضطردة ويأخذ من تكوينه العظمي. جلس على فراشه يحسب المعادلات المختلفة بين معدل نمو القرن والمتبقي من الخلطة السحرية وامتصاص قوته المتسارع. أطلق ضحكة مدوية وقد وصلت حساباته إلى نتيجة أخيرة، أكدتها رؤيته للنمل من جديد يتجمع بأعداد كبيره في كل مكان في السقف، ثم يبدأ في التساقط عليه حتى غطى جسده كله، لقد كان هو في ذاته مصنعًا لتخليق الحياة للأجيال الجديدة من النمل. ربما اختفت في حياة ضحية أخرى، ثم ظهرت في الوقت الذي احتسبته تمامًا لنضوج مادة حياتهم في جسده.

من أسفل، من أعلى

سار في درب شائك محاط بأسيجة فولاذية تعتليها تماثيل غاضبة لتنانين تنفث نارًا، تصل بين التنانين ثعابين هيكلية عملاقة تعصر بعضلاتها الخارقة أحلاما كثيرة حتى تتكسر عزائمها ويسيل اليأس من نظراتها، أرعبه المشهد حتى ارتعدت أفكاره، لم يستطع التحكم في مصيره وهو يرى الأرض تتحرك أمامه فتتحول حبات الرمل إلى ضباع شرسة لها أنياب أرجوانية تزيد عن طول الضبع ومخالب تمتد عشرات الأمتار أمامه ونظرات نارية تلاحقه أينما حاول الإختباء، وجد منفذًا بين حراشف الثعابين، تسلل منها قبل أن تصله مخالب الضباع، تحول إلى الجانب الاخر من السور فوجد نفسه على فوهة بركان ليس له قاع وتبدو الحمم المتصاعدة منه كقنابل نووية موجهة نحو الفضاء المظلم، تدارك نفسه في اللحظة الأخيرة، سمع أصواتًا لم يفسرها، مزيج من الصراخ والأنين والبكاء والضحك المتواصل، تحرك في حذر على حافة السور والأشواك البارزة كالخناجر تعبث في مؤخرته، وصل إلى منحدر على الحافة أشبه بالدرج، نزل منه مسرعًا رغم شدة الإنحدار، هدأت الأصوات وتصاعدت في داخله أسئلة لا نهاية لها. وصل إلى الأرض المستوية أخيرًا، صحراء لا نهائية تتخللها جبال كالسراب، سار على غير هدى والرمال المحترقة تخترق حذاءه البالي، كراقص باليه محترف ظل يتنقل بين الرمال والرمال حتى ظهرت له فجأة شجرة عملاقة، أسرع يستظل بظلها فإذا بها تساقط عليه ثمرًا كرؤوس الشياطين يتحرك حوله ويحيط به، نظر من خلال الضوء الخافت المار عبر أفرعها الكثيفة التي أحاطت به، وجد الشمس تقف فوقها

تمامًا، استجمع ما تبقى من طاقته وألقى بنفسه خارج ظلها، اختفى كل شيء.

قام من على الأرض يتحسس أركانه، آلمه بشدة وضع يده على رأسه، يبدو أن سقوطه الحر من على السرير حتى وصوله إلى الأرض قد مر بمراحل مختلفة كل منها أشد من الآخر وأكثر صعوبة. شيء بحجم سيارة نقل هائلة يجثم على صدره، أنفاسه المتلاحقة سابقت الريح، قام أخيرًا وكل ذرة في جسده تعاني منه وتكرهه، انتصب، سار بخطا مترددة حتى أكمل طقوسه اليومية، كل شيء هلامي يتحرك كالجيلي، أخذ نفسًا رد به صراعه إلى مستودع البعد الآخر، خرج إلى الشارع، كائنات بأنوف طويلة وعيون جاحظة وأرواح تصارع الذوات، لا جديد، ما أذهله شخص متكرر متكور على كيانه يصارع شيطانه في جانب من طريق غير مطروق، وقف يتأمل المشهد، من سينتصر؟ الأعلى أم الأسفل، اشتد الصراع حتى رأى سنوات العمر تنساب من شعر رأسه وتحت أظافره، رأى أمعاءه تخرج من أسفله تتساقط منها كرات ملتهبة، تخرج من رأسه أقزام صغيرة جدًا تتبادل فيما بينها اللكمات المؤلمة، فجأة فجر انتحاري نفسه وسط الصراع فتبخر الجو وانشقت ذرات الهيدروجين عن الأوكسجين فاشتعل الموقف، أسرع الخطا يبتعد عن الدوامة، وصل إلى عمله مرهقًا، جلس على مكتبه محتضرًا. أكمل يومه في قبره يحاول تجميع الإجابات على أسئلة تقرير المصير، لا يذكر شيئًا، ذاب خوفًا وقلقًا وانتظر، طال انتظاره، دق جرس العمل، استجمع بقاياه، خرج يجر كرامته التي دهست عشرات المرات

يزفها كبرياؤه المنتحر. سار في الطريق الشائك يتجنب ذاته، وصل إلى فراشه ميتًا، استقبلته التنانين من جديد.

لوحة الصبر

سعد شمشون جدًا بالدعوة التي تلقاها من الدكتور سليم أستاذ الفنون لحضور حفل توزيع جوائز المركز الفني السنوية، يعرف خلفيته من زاوية في شارع رئيسي في وسط البلد يعرض فيها لوحاته كل أسبوع في يوم الإجازة ويجلس معه أحيانًا لتناول الشاي، وقد يشتري منه لوحة تعجبه، هو يفعلها دائمًا كلما اشتكى له من عدم مقدرته على شراء أدوات ومواد الرسم الزيتي الذي يعشقه ويتقنه، وكان يسعد كثيرًا حين يناديه:

- فان جوخ.

رغم مرارة المقارنة إلا أنه كان دائمًا يتمنى أن ينال شهرته، ولهذا كان يوقع لوحاته بأول حروف اسمه، يعيش على مداد أمل أن تنجح إحدى لوحاته في كسر الحواجز الفولاذية بين الطبقات.

احتار ماذا يرتدي؟! ليس عنده سوى ملابس العمل التي يتسلمها كل فترة لتناسب عمله كجامع للقمامة، وملابس للمناسبات الهامة لكنها لن تتناسب مع قيمة ومكان ذلك الحفل الفاخر الذي يحضره كبار الفنانين والمدعوين، اضطر إلى تأجير بدلة خاصة والذهاب إلى حلاق أرقى قليلًا.

لم يعرف نفسه، ذهل أبناؤه وضحكت زوجته حتى ظهر الفراغ في فمها من كثرة الأسنان المفقودة:

- تظن نفسك ذلك المجنون بيكاسو.

- أخيرًا نطقتي اسمه بصورة صحيحة.

لاحقته بالتقريع المعتاد كلما أنفق مالًا على فنه الخاص، رغم أنه يتكسب أحيانًا منه مبالغ قليلة، لم يبالي، تذكر كلمات الدكتور سليم التي تؤكد عليه

وجوب الإندماج قليلًا في الوسط الفني لعل فرصة شاردة تكون من نصيبه فيوافق مسئول ما على عرض أعماله في صالة محترمة.

نزل منتشيًا، يقترب بخطى واثقة من درب أحلام لم تفلح شعيرات رأسه البيضاء ولا يده الخشنة في إبعاده عنه.

وصل إلى المقر الفاخر ودخل بعد أن سأل عن الدكتور، رغم أنها أفخر ثياب يرتديها في حياته، وأكثر قيمة حتى من بدلة الزفاف، إلا أنها فاضحة تماما، تبدو كسيارة قديمة متهالكة تقف بجوار سيارات فاخرة حديثة، ابتسم من المفارقة وقرر تجسيدها في لوحة سيسميها من أسفل، من أعلى.

التقى الدكتور سليم أخيرًا، كان في صحبة الوزير وأجانب وسيدات يلمعن في الظلام، رحب به وقدمه على أنه فنان وجودي تجريدي.

ابتسم، هذه مقدمة ضرورية حتى لا يعلق أحد على مظهره، لكنه فوجئ بإعجاب من الحاضرين والتفاف الفتيات حوله وسؤال ملح إن كان يسمح لهن برسمهن في مرسمه، ضحك حتى ظهرت مملكة السوس القابعة في معظم أسنانه، أخذه الدكتور سليم إلى ركن خلفي في المعرض المصاحب للإحتفالية، أذهله ما رأى، إحدى لوحاته تتوسط حائطًا كاملًا، بحث عن اسمه تحتها كما يحدث في كل المعروضات، لم يجده، انقبض قلبه، قبل أن يسأل عاجله سليم:

- لا تقلق يا صديقي، أنا لم أسرقها منك، أنت نكرة لا يعرفك أحد، ولا يمكن أن يقبل أي مسئول أن يعرض أعمالك، لذلك قدمتها هنا على أنها لوحة وصلتني من مجهول.

- فنان حقيقي ذلك المجهول.
- وليزيد تعجبك، هذه اللوحة حصلت على جائزة العام الثالثة.

ذهل شمشون، نظر إلى سليم طويلًا ثم تفجرت الدموع من عينيه وأسرع يقبل يده.

تراجع سليم خطوتين للخلف وأمسكه من كتفيه:

- يا صديقي الجهلاء والمدعون والواهمون يصنعون زحامًا فوضويًا في مقدمة الصفوف، الموهوب الحقيقي في كل الفنون شديد الحساسية، لا يزاحم أبدًا ولا يحارب من أجل إيصال رسالته، قليلون جدًا من كانت عندهم تلك الروح القتالية، لا يحتملون كلمة جارحة تمس موهبتهم، هم مثل الجواهر النادرة تحتاج من ينقب عنها، وأنت تستحق.
- لا أعرف ماذا أقول لك، ولا أريد شيئًا، لقد وهبتني الحياة من جديد.
- للأسف هذا المعرض ليس له جوائز مادية، ولكن الأعمال الخمسة الأولى تأهلت مباشرة للمشاركة في أكبر معرض بالعالم في إيطاليا في منتصف العام القادم، وعندي أمل أن تفوز بإحدى الجوائز المتقدمة وربما يشتريها أحد أثرياء العالم.
- وكأنني في حلم، ماالذي تقوله يا دكتور!! معقول.

- الفنان الحقيقي يا صديقي من الممكن أن تتغير حياته في لحظة التماس بين الحلم والحقيقة، كما قلت لك، الجوهرة الغالية تنتظر فقط الإكتشاف.

بقدر ما كان محلقا في عالم خيالي، بقدر ما جرحه أن تنسب اللوحة لمجهول حين توزيع الجوائز.

سمع همهمات من حوله حين استلم الدكتور سليم الجائزة أنه هو من رسمها ولكن منصبه في الجامعة والحكومة يمنعه من ذكر أنها لوحته، نزف قلبه أكثر والتهاني تنهال على الدكتور سليم من صفوة المجتمع وسمع بأذنه أحد كبار الفنانين والذي ترأس لجنة التحكيم يقول أن لوحة الصبر كانت تستحق المركز الأول بجدارة ولكن عدم ذكر اسم من رسمها هو السبب في تأخرها.

انتهت الليلة الخيالية وعاد إلى الواقع مع توصية من الدكتور سليم له بألا يقول لأحد أن اللوحة لوحته حتى لا تفقد فرصتها في المنافسة، ووعده أن يصطحبه معه في موعد المعرض لأن الوضع مختلف تماما في الخارج وسيستقبلونه بود وترحاب.

عاش الحلم طوال الأشهر التالية، استقطع من قوت يومه حتى يجمع تكلفة جواز السفر ثم سلمه للدكتور، توقف عن عرض ما يرسمه في زاويته الخاصة في نهاية كل أسبوع، خفف من علاقاته بمن حوله، هيأ نفسه تمامًا للنقلة المنتظرة.

قبل السفر بأسبوعين ذهب إلى فيلا الدكتور سليم للإتفاق على الخطوات الأخيرة، قلبه القلِق لم يتوقف عن النبض طوال تلك الفترة، سيحدث شيء ما، وقع عليه الخبر كالصاعقة.

– توفي الدكتور نتيجة أزمة قلبية مفاجئة.

جلس على ركبتيه وظل يضرب على رأسه، ظنوا من مظهره أنه كان يتلقى صدقة من الدكتور، سارع أحدهم بإعطائه بعض المال طالبًا أن يدعوا له بالرحمة.

نظر له طويلًا، ثم ألقى بالمال على الأرض وترك المكان، سار هائمًا على وجهه لا يعرف ماذا يفعل، دخل بيته مهزومًا.

ذهب بعد العزاء ليستعيد جواز سفره، وجد التأشيرة عليه، هو عامل نظافة في خانة العمل، ومعها ورقة صغيرة أنه خادم الدكتور، فهم ما حدث، لكن لا يهم، يذهب معه كخادمه ويعود كفنان عظيم.

ذهب إلى السفارة يسأل عن كيفية السفر، أخبروه أن التأشيرة مشروطة بسفر الدكتور سليم، وبالتالي تلغى تلقائيا لوفاته، ضحك حتى البكاء، كان يريد منهم أن يساعدوه على السفر فقتلوا حلمه تمامًا.

تابع أخبار المعرض عبر الإنترنت، شاهد لوحته تزين مجلة المعرض، طعنته من جديد كلمات التعريف، لوحة الصبر، فنان مجهول، الدكتور سليم.

– سينسبونها للدكتور إذن، من يعرف الفنان المجهول؟

انتظر بلهفة يوم إعلان الجوائز، تابعه من جهاز الحاسب في بيت أحد معارفه، حصلت لوحة الصبر على المركز الرابع وجائزة عشرون ألف دولار.

فتح فاه! هذا المبلغ يساوي راتبه في أربعين عامًا، قفز في مكانه من الفرحة، تابع:

– وقد اشتراها محب للفنون بمائة ألف أخرى.

نسبت إلى الدكتور سليم، سقط مغشيًا عليه.

طرد من فيلا الدكتور شر طردة حين أدعى أنه صاحب اللوحة، لم يسمح له أحد بدخول مكاتب المركز الفني الكبير، لحين يوم تكريم اسم الدكتور واحتفالية بفوز اللوحة الأول في تاريخ الوطن، أصابه بالجنون حين رأى أعماله التي كان الدكتور قد اشتراها تعرض وتنسب له بعد موته.

صاح في وسط الإحتفالية:

– أنا صاحب اللوحة، بل صاحب كل تلك اللوحات، عليها جميعًا توقيعي.

التفت له الحضور، ثار أبناء الدكتور وزوجته، حضرت الشرطة فحملته إلى القسم القريب، أوصت النيابة بتحويله إلى مستشفى الأمراض العقلية، كان التشخيص النهائي:

– متلازمة لوحة الصبر.

فاشان

لم يكن من الممكن أن يسيطر على النار المشتعلة في جسده بعد أن شاهد العرض العاري لبطلته المفضلة في فيلمها الأخير، دار في الشقة الخالية بعد ذهاب والديه إلى عملهما وشقيقته إلى كليتها كمن أصابه مس من الجنون، يتأوه بشدة ويتلوى بقوة حتى ظهرت أمامه كأنها مرسلة له من عالم آخر لتفريغ طاقته المتجددة، كأنه يراها للمرة الأولى، انقض عليها يحتضنها ويقبلها ثم تجرد من ملابسه واحتضنها بعنف حتى كادت أن تتمزق بين يديه.

هدأ أخيرًا، تبين الموقف، الدمية الكبيرة الأنيقة التي أحضرها خطيب أخته في العيد الماضي على شكل إحدى بطلات الكارتون قد تحولت إلى فوضى عارمة، استرد أنفاسه اللاهثة أخيرًا وأعاد الدمية كما كانت ثم أخذ حمامًا سريعًا وهو يلوم نفسه على تهوره وسيطرة شهوته عليه وتعهد ألا يشاهد تلك المشاهد المثيرة مرة أخرى.

خرج إلى عمله متأخرًا قليلًا، لم يتأقلم عليه بعد رغم مرور عدة أشهر عليه فيه، وصل وعلامات الإرهاق بادية عليه، صاح فيه مدير الوردية يذكره أن الوردية تبدأ في الثانية وأن هذا هو إنذاره الأخير قبل توقيع الجزاء، لم يأبه لحديثه كثيرًا وبدأ في ممارسة عمله على جهاز الكومبيوتر، استغل لحظة هدوء في العمل وفتح فولدر يخفيه جيدًا بين الملفات، أطلت عليه الممثلة الحسناء التي تعمل موديلًا أيضًا لملابس البحر المثيرة، تنهد بعمق وسرح بأحلامه خلف حركات جسدها المنتظمة في دلال وابتسامتها الساحرة وتفاصيلها الدقيقة المتفردة، كاد أن ينهار من جديد، غاب بذهنه عن الوعي.

عد الدقائق والثواني حتى خلى البيت في اليوم التالي من أسرته وبدأ في مشاهدة أدوار جديدة لممثلته المفضلة على جهاز اللاب الخاص به، بدأ مبكرًا قليلًا هذه المرة وشاهد فيلما كاملًا. وظل مترقبا حتى شاهد المشهد الذي سمع عنه قبل نهاية الفيلم مباشرة، استثير بشدة، لم يتعب كثيرًا هذه المرة، كانت الدمية بجانبه يتحرش بها ويحتضنها مع كل انفعال يسيطر عليه، استنفذ كل طاقته عدة مرات حتى لم يعد قادرا على تحريك قدميه، تحامل على نفسه وأعاد دميته إلى مكانها وخرج إلى عمله يسير بصعوبة، تناول عدة أكواب من القهوة دون أن يتناول طعامًا، استمر على هذا الحال عدة أيام حتى سقط قبل نهاية ورديته مغشيًا عليه، بعد أن وقع الطبيب الكشف عليه همس في أذنه بعد أن عرف أنه ليس متزوج:

– قلل مما تفعله، سيقتلك، نظمه على الأقل، وتناول طعامًا جيدًا.

منحه إجازة عدة أيام، طلب منه أن يجالس الناس ويتحدث مع الأصدقاء والأفضل أن يمارس الرياضة.

ليس له أصدقاء، انطوائيته ألزمته الحل الرياضي، اشترك في أحد الأندية وانكب على السباحة ورفع الأثقال حتى كوّن جسدًا مشدودًا ملفتًا.

في ليلة زواج شقيقته اختفت دميتها الأثيرة، هكذا أخبرتهم حين زاروها، تعجب الجميع واستراحوا إلى أنها ضاعت أثناء الإنتقال.

استيقظ فزعا من نوم عميق، تلفت يمينًا ويسارًا، أنفاس هادئة بالقرب منه وكأن جسدًا لينا بين أحضانه، قتلته الظنون حتى أشعل الأنوار، توقف شعر

رأسه حين رأى جسدًا يتحرك أسفل الغطاء، اقترب مرتعدا وكشفه، أغشي عليه بعد أن صرخ صرخة مدوية.

استيقظ على ضوء الشمس يخترق عينيه، قام كمن تلقى ألف ضربة من ذراع حديدية، جسده كله يؤلمه، شاهدها فوق دولابه تنظر إليه، صرخ مرة أخرى فاحتضنته أمه التي لم يلحظ أنها نائمة على المقعد بجواره، هدأت من روعه وأعطته حبوبا مهدئة وصفها الطبيب، بعد أن استجمع شتات نفسه، لامته على إخفائه دمية شقيقته، ما كان عليه سوى أن يطلبها.

لم يستطع أن يعقب، ظل ينظر لدميته دون أن ينطق، شعر بها تبتسم، رغم أنها مبتسمة في الحقيقة، لكنها حركت شفتيها، أقسم على ذلك، دون أن ينطق.

تركها في دولاب غرفته دون أن يخبر أحدًا، ظن موقنًا أنها ستفتن عليه، انكب على عمله وحياته، لم يأبه كثيرًا إلى أنه كلما عاد وجدها في مكان مختلف، لم يلتفت إلى الأصوات التي يسمعها ليلًا، ولم يعر أحلامه شبه اليومية بها انتباهًا، رغم أنه كان يمارس معها حبًا مثيرًا، إلا أنه عزاه دومًا إلى أيام جنونه وافتتانه بها.

في ليلة زواجه أحكم إغلاق دولابه عليها في منزل والديه، لم يكرر تجربة إلقائها في صندوق القمامة بعد أن لامه والداه وبكت شقيقته كثيرًا عليها بعد أن رأتها في الحلم تستغيث بها!

دخل شقته سعيدًا مع زوجته الحسناء، داعبها قليلًا ثم فتح باب غرفة النوم، وما أن فعل حتى سقط مغشيًا عليه.

أفاق على لوم جديد من والديه وشقيقته، لو كان يحب الدمية إلى درجة أن يضعها على فراش الزوجية ليلة الدخلة، فلماذا حاول من قبل أن يتخلص منها؟

لم تفهم زوجته وظنته ارتباطًا طبيعيًا خاصة أنه لم يحدثها أبدًا عنها من قبل، وضعوها في غرفة الأطفال. حاول أن يمارس حياته بصورة طبيعية مع زوجته، في الليلة الأولى سمعا معًا صوت بكاء أطفال، لم يجدا شيئًا فلم تستطع التجاوب معه، في الليلة الثانية سمعا صوت امرأة غاضبة تنهر أطفالها، طمأنها إلى أنها أشياء طبيعية في الشقق الجديدة، لكن في الليلة الثالثة بعد أن أقنعها ألا تلتفت إلى أي صوت غريب صرخت وارتعدت جميع أجزاء جسدها حين شاهدت وجه امرأة غاضبة على رأس فراشها.

كانت النصيحة الأهم من خالة العروس أنه لابد عمل سفلي من حاقد أو حاقدة ويجب حله.

- لايصدق أحد حتى يجرب أو يرى بنفسه، هذا حال البشر، أغبياء معاندون لا قيمة لهم في هذا الكون.

كان هذا تعقيب الشيخ على ملاحظة والد الفتى أنه لا يصدق في هذه الأمور، ثم سأل الفتى سؤالًا مباشرًا عن علاقته بهذه الدمية؟

لم يجب بطبيعة الحال، هز الشيخ رأسه عدة مرات ثم بدأ في تعزيماته، اشتعلت عدة نيران في المكان انتهت إلى غضب جامح من الشيخ وطلب منهم جميعًا أن يخرجوا، وهم عند الباب طلب من الفتى أن ينام الليلة في فراشه وحيدًا وإلا مات كل من يعرفه، أصابت الكلمات الجميع بالرعب،

صمموا على أن يذهب معهم إلى بيت والديه أو ينام في فندق، لكنه صمم على إنهاء الأمر الليلة مهما كلفه الأمر.

أحاط والديه وزوجته بالغرفة من الخارج وشغلوا القرآن في كل الشقة، بعد منتصف الليل بقليل انقطعت الكهرباء وأغلق باب الغرفة من الخارج، اختفى صوت طرقاتهم تدريجيا وكأنه يذهب إلى عالم آخر، على ضوء شموع كان مستعدا بها رأى الدمية تنظر إليه بعينين سودواوين احمرتا تدريجيًا، اقتربت منه وهو يحاول السيطرة على انفعالاته المتزايدة، أخيرًا سمع صوتًا واضحًا جليًا يخرج من بين شفتين صامتتين:

- هل تريد أن تترك حبيبتك فاشان؟ أيها النذل، بعد كل ما كان بيننا؟ وبعد ثلاثة أطفال؟!

أذهلته الكلمات الأخيرة، ارتعدت الكلمات على شفتيه:

- أطفال؟! كيف ومتى! ومن أنت أساسًا؟
- زوجتك يا حبيبي، ألم تستدعني وأنت تمارس الحب مع هذا الجسد الميت لأهبه الحياة؟ ألم تتمنى عدة مرات أن يكون حب عمرك وكفى؟
- لم أكن أتخيل أن شيئًا من هذا ممكن أن يكون حقيقيًا؟ لقد كانت لحظات تملكني فيها الشيطان وأغواني وقد تبت عنه.
- لا يمكنك أن تتوب يا حبيبي، لقد تزوجنا زواجًا شرعيًا وعاشرتني طوال السنوات الماضية، وقد بارك والدي وعائلتي زواجنا.

- ليس زواجًا، أنا لا أعرفك، ولا أعرف ما تتحدثين عنه.

وسط انفعاله وخوفه شاهد حركة في نهاية الغرفة، ثم ثلاثة أطفال صغار كالملائكة تتراح أعمارهم بين عامين وخمسة، فتاتان وولد صغار، ارتموا في أحضانه، ألقاهم بعيدًا فبدأوا في البكاء، أثناء بكاءهم تحولوا إلى شكل مختلف تمامًا زاده رعبًا وعاد حتى التصق بالحائط.

تحولت فاشان مع أبنائها إلى كيان مختلف، زادت أظافرها طولًا وبرزت أنيابها وتضخم حجمها وجف وجهها، ألقمت ابنتيها ثديين عظيمين وهما في مكانهما بينما أخذت ابنها في حضنها وصرخت فيه بغضب:

- لولا أنك والدهم لحرقتك الآن، اسمع، أمامك حل من اثنين، سأسمح لك بالزواج من تلك البشرية على أن تتركنا نعيش معك في الغرفة الثانية، ليلة لها وليلة لي، أو آخذك معي إلى عالمي ولن ترى أهلك مرة أخرى؟!

في ذكرى مولد ابنه البشري السابعة، كان سعيدًا جدًا وهو يقطع الحلوى، وترك قطعة كبيرة في الغرفة المغلقة دائمًا ليحتفل لجميع.

هينا

لابد أن ينتهي هذا العالم الظالم على يدي، سيكون ختامًا مدهشًا لفصول المسرحية الهزلية التي نعيشها، تقف الجماهير في أسفل الجبل تنتظر تحديد مصيرها، سأخرج لهم من بين الصخور ملبيًا، أنا المنقذ لما تبقى من كيانكم الشبحي الأسود، سأنزل عليكم لعنتي وأنشر عذابي بطريقتي، لن تشعروا بشيء، بل يجب أن تشعروا بكل شيء، يجب أن تخرج الآهة من كل ذرة في كيانكم. أنتم العبيد وأنا السيد، أعبدوني من دون كل إله لكم، لعلي أرحمكم من عذاب أليم.

أفاق من تأملاته على ضربة عنيفة على قفاه من كف عريض يعرفه جيدًا، انحني أكثر ليتفادى كف التحية الثاني، ابتسم في ذل لحارس مقام الخواجة وهو يجلس بجواره مقهقها من وقع صدى الكف العنيف الذي يتفنن في إتقانه كل مرة، هذه المرة اهتز رأسه وغلى من الداخل وصمم على الإنتقام من دردير، يعرف تمامًا كل ما يقال عن تورطه في تسهيل عبادة الشيطان في المقبرة الغامضة منذ الحملة الفرنسية، أبًا عن جد، يفاخر دردير بين أقرانه أنه مشارك في كشف أسرار الحضارة القديمة ويعرف ما سيحدث في المستقبل، انسحب مينا من المقهى القريب من المقابر مقررًا مراقبة دردير عن قرب، قرار تأخر كثيرًا، يعرف ذلك منذ كانا طفلين يمارس دردير عليه سطوته وتنمره الدائم، تخفى في جلباب أسود وارتدى عليه ظلام الليل، انتظر عند حافة مقام جد دردير الكبير الخواجة جان بيير، لا مفارقة في الموضوع بعد أن كانت كل حوارات أهل القرية عن كرامات الخواجة منذ أيام الحملة وتكريم نابليون له في حفل بهيج، الخواجة قرر البقاء في القرية القريبة من العاصمة ومتابعة أبحاثه ورسوماته حول ما كان وما سيكون،

رغم هيئته الوقورة وحبه للأرض لم يكن بخيلًا، أغدق على الجميع وتزوج مريم ابنة القرية في حفل بسيط قرب التل الأثري وأنجب منها زاخر ابنه الوحيد، بزواجه منها صاهر كل عائلات القرية بمختلف دياناتهم. وأصبح زاخر ابنهم جميعًا، أنجب زاخر ابنه نبيل وحيدًا أيضًا، ولما مات جده جان بيير بعد عمر مديد أقام له مقامًا وسط التل. وسمحوا لبقية القرية أن تدفن موتاها حول المقام.

وعينت الحكومات المتوالية عائلة الخواجة حراسا للتل والمقابر. تحور اسم جان مع الزمن وأصبح مقام الجن.

قرية الخواجة يتوسط تلها مقام الجن الذي يحرسه حفيده الدردير. عبر مائتي عام أو يزيد كان أقارب الخواجة يحضرون لزيارة المقام ويبقون فيه تحت حراسة مشددة أيامًا ثم يذهبون ومعهم حقائب كثيرة.

ترقب مينا حضور الأقارب السنوي، ما أن تباهى دردير بحضورهم حتى جلس مينا في انتظارهم تحت هدأة الليل، أتقن صناعة التخفي وهو يدخل خلفهم إلى المقام وقلبه يكاد ينخلع من صدره خوفًا من حكايات الدردير عن ظهور الجن مرة كل عام وابتلاعه الضحية التي يقدمها الحفيد والزوار ليبارك السنة الجديدة والقرية كلها، الزوار يتحدثون لغة الخواجة وينقل واحد منهم الأوامر لدردير الذي يبدو أنه يتجاوب معهم بالإشارة، طوال العام يختفي الدردير كثيرًا في المقام الذي يتوسط قمة التلة بحجة التنظيف والترميم، بعد كل زيارة من الخواجات يسارع دردير بشراء قطعة أرض جديدة حول تلة المقام بحجة الحفاظ على حرمة جده وتوسيع جنته

الأرضية ليقبع متمتعًا في خلوده الأبدي، وتظهر معدات غريبة تدخل وتخرج وتحفر حتى تختفي داخل الحفر، ثم يهدأ كل شيء فترة قد تصل إلى سنوات قبل أن تحضر زيارة تنشط العمل من جديد، عبر باب ظهر فجأة أسفل السلالم المحيطة بالمقام الجرانيتي الفاخر مر مينا بهدوء، تفاجأ تمامًا بظهور عالم مختلف خلف الباب، ممرات منظمة وطرق متعددة تتغول داخل الأرض في الإتجاهات الأربعة. حوائط رافعة وإضاءة مناسبة، تعجب من ترك الباب مفتوحًا، أكمل في اتجاه الممر المنير مرهفًا السمع لخطوات الخواجات الفرنسيس. ظن يقينا أن روح الجن صاحب المقام موجودة في مكان ما دخل هذا العالم السحري السري، لم ينتبه إلى الإشارات الموجودة على الجدران القديمة التي يمر من خلالها حتى وصل إلي بهو متسع قليلًا في نهايته باب حجري كبير عليه رموز كثيرة. يبدو أنها مقبرة قديمة، للمرة الأولى ينتبه، هي مقبرة فرعونية إذن وما هم إلا لصوص آثار.

قبل أن يخطط لابتزاز دردير ومشاركتهم في كنزهم، كانوا قد أحاطوا به من كل جانب موجهين أسلحتهم ناحيته، تمكن منه الخوف وشل حركته، جثا على ركبتيه يحاول استجداءهم، نظر إلى دردير الذي جحظت عيناه بنظرة متوحشة يسترحمه، لكن خواجة نطق بعربية مكسرة:

نحن ننتظرك يا مينا منذ عدة عقود، تأخرت علينا كثيرًا، لم نكن نستطيع أن نرغمك، لابد أن تحضر بإرادتك الحرة، لقد آن الأوان، صاح فيه دردير بعد أن بدأ في البكاء خوفًا من أن يكون القربان الجديد: أصمت يا نسل الأقدمين. لا يجوز أن تبكي أو تخاف، أنت السيد هنا ونحن كلنا

حواريوك، تأمر فتطاع فأنت الملك ونحن الأتباع، لم يفهم المفارقة، ولم يعرف ماذا عليه أن يفعل؟ وكيف يعاملونه كأنه ملك؟ وهو في الحقيقة شخص فقير لا قيمة له في سوق الرجال، اقترب منه الخواجة الأكبر عمرًا ووضع حول عنقه قلادة الجعران الزرقاء، ثم ضرب بصولجانه على الباب الحجري فانطلق نور أحمر بين الجعران والصولجان والباب، انفتح الباب رويدًا رويدًا محدثًا دويًا عظيمًا، دخل مينا منتشيًا مصدقًا أن الحياة قد فتحت أبواب النعيم لمستقبله. كل خطوة تقتل يأسًا وتخلق حلمًا وأملًا، دخل خلفه دردير ومعه الخواجات.

بمجرد دخوله أحاطت به كائنات خرافية ذات رؤوس ضخمة ومخالب حديدية. وضعوه على طاولة ممتدة فوق عوة عميقة، أحكموا وثاقه. اقترب منه دردير وهو يبتسم في نشوة مريضة، أخرج سيفًا عظيمًا من أسفل الطاولة وهمس في أذنه:

دمك سيفتح لنا أبواب العالم الأخر، وستلتقي روحك بصفوة من خطا بقدمه على هذه الأرض، في الجحيم.

ضحك دردير وتعالت صيحات الخواجات، رفع دردير سيفه وهوى به على عنق مينا الممتد.

استيقظ مينا صارخًا يتحسس رقبته الطائرة، اطمأن إلى أنها في مكانها، دخلت والدته فزعة تطمئن عليه وفي يدها كوب ماء بارد تعمدت إلقاءه عليه:

– كيف قتلوك هذه المرة أيها الحي في عالم منفصل.

لملم مينا مشاعره وأسرع يجفف وجهه وهو يجري أمام والدته:

- ذبحوني في مقبرة فرعونية.
- جميل ورائع ومختلف. هل أحضرت لنا تمثالا يريح والدك من شقاء العمل.

ابتسم وهو يخرج من المنزل مباشرة قبل أن تسحقه سخرية أمه خاصة وأنه كان نائمًا بملابسه وحذائه كعادته عندما يندمج في فكرة قصصية أو روائية، أسدل الليل ستائره على محيط المدينة الكبيرة المجاورة للتاريخ والهاربة من زمن العمالقة، توجه مباشرة إلى كوبري قصر النيل حيث يحب أن يجلس بجوار الأسد قليلًا ثم ينزل أسفله يتأمل في كل عاشقين يختطفان لحظات سعادة من عيون المتلصصين والمكفهرين، قام له شاب متحمس ظنه يتحرش بفتاته بعد أن أطال النظر ناحيتهما، فوجئ مينا بالفتى يصرخ في وجهه عما ينظر له، للحظة حاول استيعاب الموقف ثم أدرك أن تغوله في لحظة ذبح دردير له قد فصله فعليًا عن العالم ولم يدرك أين استقرت عيناه، استفزت ابتسامة مينا ذلك الفتى فدفعه بعنف مما جعل توازنه يختل ويسقط مباشرة في النيل، لم يفهم ماذا حدث مرة أخرى بعد أن سقط كالبصلة رأسه لأسفل حتى لامس القاع القريب؟ انعزل لحظات إجبارية جديدة عن العالم فشاهد رأسه التي قطعها دردير يركلها الخواجة الجن الذي يتذكر ملامحه جيدا من لوحة مرسومة بإتقان فناني الحملة الفرنسية ومعلقة على حائط مقامه الرفيع، قبل أن تدخل رأسه في الشباك معلنة عن هدف كوني مباشر، كان يرتفع لا إراديًا إلى ما فوق طبقات الماء بنفس

سرعة نزوله فيها، لا يعرف بالضبط؟ هل ذلك الشيء اللزج الذي التصق بفمه هو بقايا سمكية أم حماسة شاب ما مع فتاته أم تراها بقايا معدة أو مؤخرة بشرية، مذاقها الملحي لم يعرفه من قبل ولذلك لم يميزه، قفز أحدهم عليه بعد أن أخرجوه وأخذ بكفيه يضغط على صدره بطريقة متكررة ظانا أن قلبه قد توقف، مينا في الحقيقة كاد أن يتوقف قلبه من شدة الضغط عليه فهو لم يلبث في الماء أكثر من لحظات، ولو تركوه لتمكن من تعديل أوضاعه والخروج بنفسه لمهارته في السباحة، ما جعله ينتبه أخيرًا إلى ضرورة الإعلان عن وعيه في نفس لحظة دخول منقذ آخر وإصراره على إعطائه قبلة الحياة. التقت عيناه بعيني ذلك المجهول مباشرة قبل أن يقتحم شفتيه فأذهلته النظرة الشبقة حتى رأى من خلال شفافيته الكونية ماذا يجول بخاطر ذلك الأرعن؟ انتفض واقفًا ودفع المهاجم بعيدًا، ثم بدأ يلملم نفسه، لايزال الشاب الذي دفعه غاضبًا متهمًا إياه بالتحرش رغم قبض شرطي على يديه بإحكام، اقترب منه مينا وقذف كل ما كان على وجهه من مواد لزجة على وجه ذلك المتعصب ورفع قبضته مشيرا له

– لم أكن أنظر لك وأنت تعبث في أعضاء تلك العاهرة التي معك، ولو لم تكن في قبضة أحد لسلخت وجهك بأظافري.

تفل في وجهه من جديد والفتى الآخر يستوعب ما يحدث! اتهمه مباشرة بمحاولة قتله، وظل في قسم الشرطة حتى استوفت النيابة التحقيق وأمرت بحبس الفتى الآخر، خرج مينا بعد منتصف الليل إلى المقهى القريب من الميدان يلملم أفكاره المتناثرة. التقى يوسف صديقه المقرب الذي انقض مباشرة عليه

– أين اختفيت أيها المجنون الحالم، وما هذا الذي على ملابسك؟

قص عليه مينا ما حدث، فاطمأن عليه يوسف من جديد، وعاتبه لأنه لم يتصل به.

– أيها العبقري، لقد سقطت بالكامل في الماء، وفقدت هاتفي. تعرف، لو لم يخرجوني سريعًا! لاستمتعت بالسباحة في النيل.

– يبدو أنك ارتطمت بشيء ما يا صديقي، هل نسيت أنك لا تعرف العوم؟ نظر مينا طويلًا ليوسف، ثم أطرق إلى الأرض يستعرض في ذاكرته حقيقة ما حدث، وجمع فسيفساء ما كان يسمعه بعد أن أفاق عندما خرج إلى الشاطئ، لقد غاب فعليا عن الوعي بعد أن اصطدم رأسه بحجر في المياه، وقبلة الحياة التي أفاق عليها لم تكن الأولى، بل كانت التي استيقظ عليها بعد سلسلة من التنشيط لقلبه وجهازه التنفسي، غاص أكثر في ذاكرته ليتأمل معالم المسافة البينية بين سقوطه وإفاقته، أين قضى فترة اللاوعي إذن، يذكر جميع تفاصيل وشكل نقاط المياه نقطة نقطة. الغريب جدًا موقف دردير بعد أن قطع رقبته ووضعها على حربة سوداء مذهلة فوق أسد قصر النيل وهو يفيق من رحلة اللاوعي. الآن يذكر ذلك المسعف الذي طمأنه أنه لا حاجة لذهابه الي المستشفى، ويذكر بالتفصيل ملامح الفتى الذي دفعه بعنف الي الماء، ويذكر أكثر ملامح الفتاة التي أنقذته من الموت، قد كانت فتاة إذن؟ بل هي نفس الفتاة العابثة التي كانت مع

الفتى الذي دفعه. كيف رآها رجلًا خمسينيًا ذو لحية وخدود متورمة ولسان لاهث وشفته مشققة إذن؟

- لا شيء حقيقي يا يوسف، هذا يوم خيالي، كيف أعرف أنني الآن أجلس معك في ميدان شهد ثورة للمصريين وإحباطات ونجاحات لاحقة طوال القرن الحادي والعشرين؟ كيف أتأكد أننا الآن لا نجلس في ميدان برج إيفل، أو في أحد مقاهي الشانزليزيه؟ أو في إحدي حواري لندن الضيقة المطلة من حكايات تشارلز ديكنز الكئيبة، من أنت يا يوسف؟

نظر له يوسف طويلًا، ثم ابتسم معقبًا عليه:

- كيف قتلك دردير اليوم؟
- أنت تعرف حكايته إذن؟
- يا حبيبي دردير جزء من حياتنا منذ بدأت في كتابة روايتك العام قبل الماضي.
- رواية؟ ماذا تقول!
- لا، أنت غير طبيعي اليوم بالمرة، المرة الماضية مت بضربة على رأسك، يبدو أنك لازلت متأثرًا بها ،اجعله مشهد النهاية، القرن الحادي والعشرين أوشك على الانتهاء وأنت لا تزال في غيبوبتك.
- نعم نعم تذكرت، الناشر يلح على لإنهاء الرواية وأنا لم أعد قادرًا على ممارسة حياتي الطبيعية، العالم يتغير بسرعة الضوء.

- أي عالم الذي يسير بسرعة الضوء؟ عالمهم تقصد طبعًا. الذين يعيشون الآن على المريخ وفي سفن فضائية ونحن مخلدون هنا بجوار تاريخنا العتيق.
- يا أخي أنت ساخر متشائم هكذا، وماذا في كوننا نعيش على أرضنا بعيدًا عن الفضاء ومخاطره والمريخ وبراكينه، المهم أنني تذكرت فعلًا الرواية، لقد حجز لها الناشر بعد يومين موقعًا على سلسلة البرق للنشر الألكتروني، والمفترض أن يطالعها مليون قارئ في نفس اللحظة حول العالم، وكل نقطة اعجاب تعني تغيير جذري في حياتي.
- لا تنس أنك يجب أن تجمع مائة ألف نقطة إعجاب حتى تحصل على أول عملة كونية تدخل حسابك البنكي.
- يجب أن أرفع العمل للناشر صباح الغد حتى تعمل آلات الترجمة على العشرين لغة الأصلية الأولى.
- هل أنت خائف؟
- طبعًا، أكون أو لا أكون.
- العالم يتقدم وأنت تستعين بأقوال من القرون الوسطى.
- مهما تغير وجه الأرض يبقى الإنسان كما هو.

لمح دردير يسير أمامه، حاملًا سلاحًا ليزريا، كيف قفز فوق الزمن حتى وصل إلى نهايات القرن الحادي والعشرين! سار كالمجذوب خلفه، متوقعًا نهاية جديدة.

يوم جميل هادئ

مناسب للموت

هاجمه شعور جديد فور أن فتح الستائر التي تغطي نافذته على الشارع الصغير، الشمس بأشعتها الصفراء البرتقالية قليلدًا لا تزور الغرفة طوال الشتاء تقريبًا، البناء الأخير للبيت المقابل رغم كل التحذيرات من ضعف الأساسات القديمة قد حجب طلتها الذهبية منذ عام أو أكثر، لا شيء أسوأ من شتاء بلا شمس، أو بيت بلا حياة، اليوم يبدو مختلفًا، تغازل سمعه أصوات رقيقة لطيور صغيرة تغرد هي الأخرى منسجمة مع الدفئ الذي كونته الأشعة المتسللة في الجدران القديمة، وكأن الشارع الغارق في الظلال قد استعاد عافيته، وملأ صدره العليل هواء نقي يساعده على المقاومة، الأعمدة الصدئة التي تحمل مصابيح ضعيفة باهتة لا تستطيع أن تبين بدقة نوع الكائنات الصغيرة التي تسير متلصصة في الجوانب الرطبة. أو في الأركان الغاضبة، كل ركن له حكاية، من قُبَل سريعة إلى دماء متناثرة من كثرة الصراعات والمعارك التي تقوم فجأة بين قاطني هذه المقبرة الحية، الكل يضع في عينيه مثاقيب حادة ليخترق حياة الآخر بكل تفاصيلها، تختلط أصوات تأوهات الليل الساخنة مع حسرة العاجزين من الكبار والمشتاقين من الصغار، حتى أن الجميع يمكن أن يميز من قرب الجدران وندرة الأفعال، مَن صاحبتها، لا يعلمون

أن أكثرها ضحكات ممزوجة بدموع الحرمان. المسرح منصوب والأدوار موزعة بغير إتقان والمخرج يقف على حافة المخرج الوحيد يتحكم في الجميع، هو يوم جديد مشرق إذن، قام إلى مرآته يتأمل ملامحه، كل شيء لا يزال في مكانه، العين ودموعها الجافة، الأنف ورائحة الذكريات، الفم وطعم الألم والأمل، القلب يرسل تحياته الصباحية لكل رعاياه، والعقل

يطلب الهدوء والصبر والانتظار، لم يعد هناك وقت للإنتظار، مسح جبهته ليتبين ما خطّه القدر على منحنياتها، أفرغ ما في معدته من أعلى ومن أسفل، ألقى على جسده العاري نهرًا من المياه المقدسة لعله يتطهر من ذنوب فعلها ولم يفعلها. ارتدى ملابس المناسبات الرسمية وأغلق أذنيه أمام كل صوت يحمل اسمه، اخترق الظلال وتأمل في أركان الشارع المختبئ في ثنايا الزمن، هو يوم مناسب لا شك، لا داعي لأن يحضر معه أحد تلك اللحظات السعيدة بالنسبة له، ربما يحزن أحد. وربما يلعنه الباقون لأنه أخذ القرار المفرد وحملهم هموما لا يحبونها، وكأنهم قاوموا الهموم التي تختاره بعناية من وسط كائنات الظلال، لا يستأسدون إلا بينهم، ولا يتجبرون إلا على الضعيف منهم، بينما هم كائنات صغيرة وهمية، لا يراهم القاطنون في قلب الشم، خرج من الظلال إلى الميدان، أغلق عينيه بعد أن هاجمته دفقة كاملة من الأنوار تحملها نسمات صباحية رقيقة تتسلل إلى كل مسامه فتشفيها وتروي ظمأها الأزلي، سار ينظر في الوجوه الشاحبة المتعجلة، لا شيء يستحق القلق، وكل ما لا يُدرَك لن نصل إليه، رغم أنه أفنى حياته قلقًا مترقبًا، هذا يوم جميل يطلب الإحتفال، سار إلى البحر في هدوء وانعزال، سار في كبريلء الأفيال حين تقرر الرحيل في أوج حضورها كي لا يتألم من يمكن أن يتألم، بنى حاجز الظلال عن كل ما حوله، اختار صخرة مختبئة بين الحواجز الكبيرة الصارمة التي تمنع البحر من التهام الشاطئ. الظلال تعود من جديد، لو سقط في البحر سيخلد في قصة غامضة لكاتب مجهول، لو وجدوه لن يتكلف أحد من كائنات الظلال عبئ نقله إلى الغرفة المتوحشة الموحشة، أغمض عينيه، يستمتع باليوم الأخير.

الغائب

احتمى بعناق طويل مع ذكرياته من فيض الحنين الذي اجتاح وحدته، جلس على طرف الفراش يضع يديه على رأسه، امتدت رعشة أطرافه لتشمل أنفاسه فخرجت مترددة ملتهبة منهارة، ثبَّت جسده على وضعه حتى سمع طرقات على باب غرفته فلم تستجب حواسُّه، دخل زميله في العمل قلقًا على تأخره، وجده على حاله فسأله إن كان قد مات له أحد! نظر له طويلًا ثم طمأنه أن لا أحد قد غاب بجسده، لم يفهم صاحبه معنى كلامه فطلب منه أن يسرع بالتجهز لأن موعد قدوم السيارة قد اقترب ولن تنتظر أحدًا، قام متثاقلًا فجهز حقيبته الصغيرة ونزل يجر أقدامًا وأحلامًا وأوهامًا. ركب السيارة واختار المقعد الأخير في الخلف وسط تعجُّب كل زملائه، استند برأسه المُرهَق على جانب السيارة وانفصل مرة أخرى عن العالم ترقُّبًا لتلك الرحلة الطويلة التي ستستغرق اليوم كله وستعيده من رحلة هروب لم تستغرق عدة أشهر.

انعطفت السيارة إلى الطريق الجانبي الذي يقوده إلى قريته، فوجئ الجميع به يصرخ في السائق أن يتوقف، توقَّف السائق بطريقة شديدة الخطورة حتى كاد يسقط في المجرى المائي الموازي للطريق الضيق، بعد أن اطمأنوا عليه صبُّوا جامَّ غضبهم عليه ردَّ فعلٍ للرُّعب الذي أصابهم، نزل من السيارة وطلب منهم أن يستمروا، لم يستمع لنصائح زملائه الذين حذَّرُوه من طول الطريق وقرب نزول الليل، تحركوا بعد أن يَئِسوا من عناده ولم يستطيعوا تفسير حالته الغريبة، سار على حافة الترعة يتأمل في انعكاس ضوء قرص شمس الغروب وهو يغرق شيئًا فشيئًا في منتصف الماء مستسلمًا لقوة الليل الذي يرخي سدوله بقوة وهدوء، سريعًا جدًّا ظهر نصف القمر ينير شيئًا من

الطريق، لم يكن يهتم كثيرًا لوجود ضوء، فهو يحفظ الطريق عن ظهر قلب، بتفاصيله الدقيقة ومنحنياته ومدقاته، كان حريصًا على أن يلمس كل شجرة يمرُّ بجوارها، هناك قطعة من روحه ضائعة لا يستطيع أن يلمسها أو يجدها منذ أنهى دراسته وغادر القرية للعمل في مدينة بعيدة، كأن إغماءة طويلة قد أصابته بمجرد أن تسلم شهادة تخرجه، صعب جدًّا ترك الأرض والأصدقاء والأحبة والأحلام والذكريات فجأة، فاض به الحنين، جلس على جانب الطريق عند شجرة تشاجر أمامها يومًا مع أصدقائه، واجه المجرى المائي تحت شجرة الصفصاف ذات الشعور العتيقة التي تتهدل أغصانها حتى تلامس الماء، ألقى حجرًا في موقع اصطياده مع زملائه آخر مرة، تشاجروا على تقسيم السمك فألقاه كله في الماء مرة أخرى رغم أنها كانت أكثر مرة اصطادوا فيها، لم يغفر له أصدقاؤه هذه الفعلة حتى سافر، تراهم نسوا؟ ألقى حجرًا آخر في ألم، ثم هدأ تمامًا يتأمل أضواء القرية القريبة، أذهله صوت ارتطام شيء بالماء بالطريقة نفسها التي لاحظها في حجره، نظر حوله مرتعبًا وقد ملأته الهواجس، لكنه هدأ مرة أخرى وابتسم، داعبه غصن صفصافة بفعل حركة ريحية، زادت ابتسامته وهو يعبث في الماء بعصا صغيرة وجدها بجانبه، لا يهم، افعلي ما شئت، لم أعد أخاف منك.

تحرك سطح الماء فجأة، هبت موجة ريحية خفيفة، عبث غصن الصفصافة بشعره، لم يتحرك. اختبأ القمر خلف سحابة عابرة، غلف الظلام المكان حتى لم يعد يرى كفيه، اتسعت ابتسامته وهو يرى سطح الماء ينشقُّ عن ظِلٍّ لجسد بتفاصيل امرأة، لم يتبين وجهها، لكنه لاحظ أن شعرها أطول

من جسدها ونظرات عينيها نارية ولها ابتسامة قابضة للقلوب، وقفت فوق الماء أمامه مباشرة، استمر يعبث في الماء بعصاه، سمع همسًا في أذنيه رغم أنها تقف في وسط الماء:

تتزوجني؟

رفع رأسه ليراها، ركَّز عليها بشدة مع انقشاع الغيمة وظهور نصف القمر، فوجئ تمامًا بوجه دائري مُتشقِّق يواجه وجهه تمامًا، والشعر الذي يشبه غصون الصفصافة يلفُّ حوله ويحيط به، كأنه دخل في جوفها، ابتسمت لها فبدت أنيابها الحادة واشتمَّ لها رائحة الأعشاب البحرية، ابتسم من جديد وتجاهلها:

أشياء كثيرة تغيرت يا صغيرتي منذ آخر مرة كنت هنا، لم أعُدْ أخشاك، رغم كل ما قاله لنا أهلنا عنك، لم أعد أخافك، أشياء كثيرة تغيرت، ما أقصى ما يمكن أن تفعليه؟ لن أتزوجك.

شعر بشعرها يلتفُّ حول قدميه ويسحبه برفق نحو الماء، صرخ في غضب وعنف:

لست عبدك أيتها العاهرة، لن أستسلم لرغباتك المنحرفة، ابحثي في عالمك عمن يليق بك.

حاول القيام ليقاومها، ازدادت تشبُّثًا بقدميه وسحبته بعنف إلى داخل الماء، ضربها بقدميه فلفت حول جسده النباتات المائية المحيطة به، ما إن دخل إلى الماء حتى سحبته مرة واحدة إلى الأعماق، حانت منه لحظة هدوء، رأى وجهها بوضوح، مختلفة تمامًا في عالمها، جمالها كالنور أحاط بقلبه

وسيطر على مشاعره، بُهر بها، توقَّف عن المقاومة قليلًا بعد أن طبعت على شفتيه قُبلةً طويلة، انتبه إلى أنها تسحب أنفاسه، قاوَمَ مِن جديد، أحكمت قبضتها عليه، احتضنته بقوة، استسلم أخيرًا.

تمرد الجني ظاهر

وقفت تُبدِّل ملابسها بعد نهاية يوم عمل طويل في بستان البرتقال، تدلَّلت كعادتها وتمايَلت ثم دخلت في وصلة رقص جافة على وقع كفوف صديقاتها اللائي لم يتوقَّفن عن الضحك والمرح، خلعت ملابس العمل وبقيت بقميص نوم خفيف شفاف، في قمة السلطنة حذرتها إحدى صديقاتها من غياب الشمس السريع وخطورة المنطقة المعزولة.

صاحت فيها:

لو يوجد عفريت رجل يظهر لي.

فجأة، توقفت عن الحركة، جحظت عيناها، فتحت فاها حتى سالت منه رغاو، كانت تُحدِّق في شيء ما أمامها، بعد لحظات ارتعد جسدها كله بعنف ثم سقطت مغشيا عليها.

أسرعت الفتيات بتغطيتها ثم استدعين المهندس المسئول الذي أسرع بطلب سيارة خاصة لنقلها إلى أقرب مستشفى وذهب معها بصحبة بعض الفتيات.

لم تُفِق الفتاة رغم كل محاولات الإفاقة، كانت أسرتها قد وصلت. استمع والدها إلى ما حدث، طلب أخذ الفتاة على وجه السرعة، تعجب المهندس والطبيب الذي رفض خروجها فصاح فيه:

لا بد أن ننقذها، علاجها ليس هنا.

أسرع بحملها فتبعه المهندس مُتعجبًا.

وصلوا إلى بيت منعزل بعد ساعة من السير في طرق مُتعرجة أكثرها غير مرصوف بين قرى متناثرة قليلة المنازل، البيت منخفض غارقٌ في الظلام، تحيطه هيبة مبهمة ، وتحيط به داليات عنب حمراء على شكل أقواس محاطة بأشجار سعفية في طريق متعرجة أكثرها غير مرصوفة، بالرغم من شعاع نور مصباح مُعلَّق على الباب.

يبدو أنه لا يوجد حوله كائن حي واحد، أو هكذا خُيِّل لهم من الصمت المطبق على المكان.

طلب الأب الإذن بالدخول فأذن له صاحب الدار.، دخل المهندس خلفه والفتاة يحملها أشقاؤها.

سمع الأب يتحدث بصوت خافت:

أرجوك يا شيخ ساري أنقذني، البنت اتلبست.

وقعت الكلمات كالصاعقة على مفاهيم المهندس سامي، أرجعته قرونًا إلى الوراء وألقته في عالم موازٍ سمع عنه كثيرًا لكن لأول مرة يعيشه. اعتلته علامات غضب العلم العارم فصاح فيهم:

أيها الجهلاء، الفتاة في حاجة ماسَّة إلى علاج طبي، الطبيب قال إنها في حالة غيبوبة عميقة وتحتاج إلى تنفُّسٍ صناعي ومحلول مُعلَّق.

فوجئ بالشيخ ساري ينظر له نظرة أرعبته، ثم أشار إليه غاضبًا:

الشمس تشرق في موعد وتغيب في موعد، الموت له موعد، الحياة لها نهاية، وما تراه لا تراه، وما يراك تشعر به لا تراه، مشاعرك مزيفة ووعيك كاذب،

أنت ضعيف كالريشة في مهب الريح، لا تتحرك، حولك نار تكاد تأكلك. أنياب سوداء توشك أن تنهشك، اصمُتْ وراقِبْ ولا تتحدّث.

وقف شعر جسده شعرةً شعرةً، عجز عن التنفُّس، لم يشعر بقدميه، وجد نفسه يجلس في مكانه كيوم جلس حين عاقبه والده للمرة الأولى، أوشك على البكاء.

طلب الشيخ إخلاء الغرفة إلا من المهندس والأب مع الفتاة، أشعل بخورًا كثيفًا وضع به أشياء غريبة زكمت أنوفهم، ثم بدأ في قراءة كلمات غريبة: البحر الأسود يطلق نارا، الأبواب الخلفية تُفتح تواليًا، يا صاحب الملكوت، اسمح بعبور المقصود من العالم الخفي، النار نار والقمر قمر، اعبُرْ يا ساكن الجسد في سلام عبر اللِّسان الساكن وأخبرنا لماذا سكنت جسد عزة بنت صباح، ثم أخذ يُكرِّر الكلمات ويأتي بحركات عجيبة بجسده حتى فوجئ الجميع بالفتاة تُشيرُ بيدها إلى السقف ثم تجلس بعينين غائرتين وكأنها عائدة من الموت، ثم سمعوا صوتًا عريضًا عميقًا يخرج من فمها دون أن تفتحه وكأنه تردد عميق بين زمنين:

هي استدعتني فلبيتُها.

سمع الشيخ والأب صوت ارتطام، التفتوا ناحية المهندس فوجدوه قد سقط مغشيًّا عليه، ثم سمعوا ضحكة شيطانية صادرة من الفتاة ثم تهكمًا وسخرية:

يظن نفسه ذكيًّا قويًّا وهو غبي ضعيف كحال أغلب البشر.

نظر إليه الشيخ وقد أشعل مزيدًا من البخور وردد بصوت غاضب المزيد من الكلمات الغريبة:

بحق عهد سليمان وقوة الخاتم آمرك أن تخرج من جسدها وإلا أحرقتك.

سمعوا ضحكًا من جديد، ثم امتدت أطراف الفتاة حتى ظنَّ والدها أنها ستتقطع، ثم ارتفعت وانخفضت وضربت رأسها في الحائط عدة مرات حتى سال دمها، حاولوا السيطرة عليها هم الثلاثة بعد أن أفاق المهندس على وقع الضوضاء لكنها نفضتهم جميعًا كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية، هدأت فهدؤوا. ثم تحدثت بصوته الجهوري:

هل تظنون أنني أحب هذا العمل؟! لقد خرجت لتوِّي من رصد استمر أكثر من ثلاثة آلاف عام على مقبرة حاكم مقاطعة فرعونية، ضحوا من أجل خروجي وفتحها لهم بثلاثة أطفال لم يبلغوا وفتاة عذراء وأب لخمسة أبناء ذكور، كان طعم دمائهم كافيًا لي لتروي ظمأ سنوات الحرمان، جرت محاولات كثيرة طوال هذه المدة ولكنها لم تكتمل، كنت مغادرا عالم البشر إلى عالمي حين فوجئت باستدعائها، في عائلتي لا نستطيع إهمال نداء البشر، نحن جِنُّ الرَّصد أخذت من ملوكنا العهود على ذلك. هم يستمتعون ونحن نُضيِّع عمرنا في جسد بشري غبي أو لحماية مقبرة لعينة، عندي رغبة في الحديث لو أردتم، اشتقتُ لاستخدام لساني وعقلي، هل لديكم وقت؟

تبادلوا نظرات متعجبة ثم ابتسموا بعد أن أومأ لهم الشيخ بالموافقة استغلالًا لحالة هذا الجن العجيبة وخوفًا من غضبه.

نظر لها الشيخ:

هيا قل ما تريد، أو قولي ما تريدين. أنتَ تُربِكُنا بوجودك في جسدها وتحدثك بلسانها.

للمرة الأولى تفتح الفتاة عينيها، لم يجدوا سوى جسم العين الأبيض، اختفت المقلة وانتهت معها قدرة المهندس سامي على المقاومة فأُغشيَ عليه مرة أخرى، سارعوا بوضع المياه على وجهه لإفاقته. أفاق مُتفحِّصًا الوجوه المحيطة به، الشيخ. والد الفتاة، ثم الفتاة نفسها تنظر إليه مبتسمة وسائل أخضر ينزل من فمها وعيناها جاحظتان بلا مُقلٍ، صرخ صرخة مكتومة ثم أُغشي عليه من جديد، دفع الشيخ جسد الفتاة غاضبًا.

تحدث الجني مُتعجبًا:

ماذا فعلت له هذا الضعيف المكابر، أين هو ممن كانوا يحاولون اقتحام المقبرة على ضوء خافت وفي حفرة ضيقة خانقة. ورغم أني كنت أُطلق عليهم الفئران والجعارين وأُطفئ أنوارهم وأطلق أصواتًا عظيمة لم يكن الخوف يتمكَّن منهم؟ هل تُصدِّقُ أن أحدهم اضطررتُ إلى أن أقتله بغلق الحفرة عليه لأستمتع بموته البطيء من شدة مقاومته وتحديه لي. وآخر استعان بابن عم لي وحاول أن يوقع بيننا بوعود كثيرة تعبت حتى أقنعت ابن عمي بكذبه فأحرقه حيًّا! فعلًا هذا الشخص ضعيف جدًّا ومثله يمكن لحثالة قومنا السيطرة عليه.

تمكَّن والد الفتاة من إيقاظ المهندس سامي أخيرًا، ثم عايَرَه بما قاله الجني وطلب منه أن يسترجل قليلًا.

تكوَّر في نفسه بعد أن شرب جرعة ماء ثم جلس يُراقِب من بعيد، أعجبت الجني اللعبة فأصدر صوتًا كعواء الذئب، صرخ المهندس، غضب الشيخ ساري وتوعَّد الجني لو لم يتوقف.

ضحك ضحكة خَشِنة جدا وارتفع بجسد الفتاة ثم هوى به، صرخ والد الفتاة يسترحمه، صمت الجميع قليلًا واستردَّ المهندس أنفاسه، طلب الشيخ من الجني أن يُعرِّفه باسمه وتاريخ ميلاده.

- اسمي ظام من أتباع الملك ميمون أبانوخ، ولدت بعد الطوفان بألف عام، كنت أعيش في جزيرة وسط البحر الشمالي، كتب ملكنا معاهدة مع بشري على أن يسخر له مئة منا في مقابل حصة معينة من الزئبق وأشياء أخرى، لم يستطع أحد من قبيلتنا الإعتراض بسبب الظروف السيئة التي كنا نعيش فيها، جاء دوري بعد حوالي ألف عام أخرى.

الشيخ:

كيف ذلك؟ لا بد أن البشري قد مات.

- نعم، ولكنه وَرَّثَ أبناءه العهدَ.

- وكيف كان الرصد؟ وعلى ماذا؟

- يزداد الرصد صعوبة بمرور السنوات بسبب غضب الجن، يعني أنا كان يكفيني دم طفل لم يبلغ لو استطاع أحد الوصول إلي في الألف سنة الأولى لأن الرصد على دم طفل صغير، لكنني كنتُ أزداد غضبًا وأتوعَّد مَن يأتي بشروط أصعب.

ابتسم المهندس للمرة الأولى وهو يتمتم:

غبي.

فوجئ الجميع بالجني ينتقل بجسد الفتاة بسرعة غير معقولة حتى يمسك بتلابيب المهندس الذي استجمع كل شجاعته وأتبع:

نعم غبي، تريد الخلاص وتزيد من صعوبة الشروط؟!

خلَّصه الشيخ من يدها بصعوبة بالغة وطلب منهما الهدوء والتعقُّل.

عاد جسد الفتاة إلى مكانه، سكن قليلًا ثم لاحظوا جحوظ عين الفتاة فجأة وتركيزها ناحية الجدار الجنوبي، ثم أغمضت عينيها وحدث للجسد اضطراب عنيف جدًّا انتهى بأن أُلقيَ الجسد على جانب نفس الجدار، وهدأ تمامًا، لم يلحظ والد الفتاة والمهندس سامي حالة الشيخ الذي تكوَّر في ركن الغرفة البعيد في حالة رعب كامل، ثم بدأ في الإقتراب ناحية الجسد الهادئ حتى وصل إليه ثم تمتم بصوت مسموع:

ماذا يريدون منك؟

ارتبك جسد الفتاة بعنف ثم بدأت في البكاء والعويل ولطم الخدود وهي تصرخ: الملك يريد تسخيري من جديد، أنا لم أرتح بعد، وأريد الزواج وتكوين أسرة، هذا ظُلمٌ بيِّن، لن أسمح لهم بسرقة عمري.

- وماذا ستفعل في مصيبتك؟
- لن يستطيعوا مهاجمتي في هذا الجسد، أنا مُتحصِّن به.
- ولكنهم وصلوا إليك داخله؟

- ولكن لن يستطيعوا إخراجي منه، الجسد محصن ضدهم؟
- ولكني لن أسمح لك بالبقاء فيه.
- ومَنْ أنت لتخرجني؟ ساحر ضعيف لا تستطيع حتى حماية نفسك وبيتك، لقد دخلوا بمنتهى البساطة.
- أنتَ غبي؟ ومَن يقف في وجه رسول ملك من ملوك الجن؟ اسمع، سأعقد معك صفقة.
- سأقبلُ أيَّ شيء ما عدا خروجي.
- سأُوفِّر لك جسدًا آخر.
- ماذا تقصد؟
- أمامك اختيارات، قطّ أو كلب.
- الحيوانات ضعيفة وغير مُحصَّنة، ثم إنني أستطيع التشكُّل في صورة القط الأسود في أي وقت أشاء، فما الجديد؟
- سألقي عليك تعويذة تحجب الرؤية عنك.
- لا توجد مثل هذه التعويذة، ولا تُجدي مع الملوك، لن أترك جسد هذه الفتاة إلى أن تموت.

أفاقت الفتاة للمرة الأولى، ظهرت عليها علامات الإرهاق الشديد، أسرع والدها باحتضانها بعد استئذان الشيخ، اطمأنَّ المهندس سامي عليها ثم طلب من الشيخ أن تعود لمنزلها.

- لا يمكن، هذا الجن أصبح مُطاردًا، وقد يقتلون الفتاة للوصول إليه، لا بد من إخراجه بكل الوسائل المتاحة، ولن تستطيعوا الخروج أيضًا لأنكم الآن تحت الرصد، والبيت كله مُحاصَر بجنود من الجن، نحن في موقف صعب جدًّا.

وقعت الكلمات عليهم صاعقة، لا خروج، لا دخول، لا اتصال بالعالم الخارجي.

انهار المهندس سامي من جديد وأخذ ركنًا ينتحب فيه، بينما ظل والد الفتاة يحتضنها وهو يردد ما يحفظ من القرآن.

فجأة انطفأت الأنوار.

ثم صرخ الشيخ: اتركها، هيا، سيحرقونك.

ترك الرجل ابنته وعاد إلى الخلف وقد تمكَّن منه الرعبُ، رأوا الفتاة تُحلِّقُ في الهواء وقد غابت عن الوعي مرة أخرى، ثم سمعوا صرخات خشنة جدًّا مرعوبة ترفض الخروج.

صاح الشيخ من جديد:

أطلب الأمان من الملك الغاضب، افعل ما شئتَ بعبدك المارق، لكن لا تتخطَّ الحدود ولا تنقض العهود، وإلا أُحذِّرك من غضب المارد حاكم ديار الربع الخالي، هو على بعد الدخول إلى العالم المأهول.

وقعت الفتاة على الفِراش، عادت الأضواء، نظر الشيخ إلى الفتاة.

– لم يعد هناك وقت، أَمَّنتُ لك خُروجًا إلى صاحب العهد، فلا تتردد ولا تخَفْ، الموت يُحيط بك، واللَّعنة على وشك أن تُصيبك.

ناحت الفتاة بالصوت الخشن، ثم جلست في وضع القرفصاء بانحناء عجيب:

– لن أخرج، سأعلن الحرية، الموت أهون عندي من العودة إلى ذُلِّ الرَّصد، أريدُ أن أتزوَّج وأكوِّن أسرة، اللعنة! اللعنة!

انتفضَ جسد الفتاة ، أُغشيَ على المهندس، غرق الأب في بحر دموعه، ارتفع صوت الشيخ بالترانيم غير المفهومة.

ذهبت الأضواء من جديد، ظهرت في الغرفة عيون حمراء متناثرة في كل مكان، ارتفع صوت الشيخ، ارتعد جسد الفتاة بعنف، انهار المهندس والأب، عادت الأضواء، كان أكثر مناظر حياتهم رعبًا، مجموعة من الأقزام لا تزيد عن نصف متر بآذان طويلة وأنوف مجعدة ورؤوس مستدقة وعيون جاحظة وأردية غير مفهومة تحيط بالفتاة، ثم ضرب أحدها على قدمها في البطن ثم أسفل الفم، صرخت الفتاة بلغة غير مفهومة، ازداد الضرب عنفًا حتى سمعوا صوت تحطُّم عِظامها، حاول الأب الاقتراب فاصطدم بحائط خفي، كأنهم في عالَمين مُختلفين.

– أيها البشريون الضعفاء، سيقتلون فتاتكم، افعلوا شيئًا.

نظر الأب للشيخ، أومأ له برأسه يمينًا ويسارًا.

شقوا صدر الفتاة واختفوا جميعًا داخلها، أخذت تنتفض بعنف، خرجوا بعد قليل وهم يحملون أسيرهم، أطول منهم قليلًا، نظر للشيخ بعين نارية تمتزج بين الخوف والغضب، اختفوا خلف الجدار الجنوبي، هدأ كل شيء.

الفهرس

*****

١. صراع العوالم الخفية (القرين)	1
٢. صرخات على الجدار الشَّفاف	19
٣. الطريق الدائري	27
٤. أتون الصمت	33
٥. مخالب القلوب	39
٦. عدس وملح وشيطان	45
٧. خلف ظلال الستائر	55
٨. غضب الملكة السَّعلاة	65
٩. محنة الموت الأول	73
١٠. السيرة الذاتية لوحيد القرن	77
١١. من أسفل، من أعلى	81
١٢. لوحة الصبر	85
١٣. فاشان	93

١٤. مينا 101

١٥. يوم جميل هادئ، مناسب للموت 111

١٦. الغائب 115

١٧. تمرد الجني ظام 121